مجاناً مع البيان

فؤاد التكرلي

خزين اللامرئيات

الكتاب للجميع

٣٩

فؤاد التكرلي

خزين اللامرئيات

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (البيان)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٥

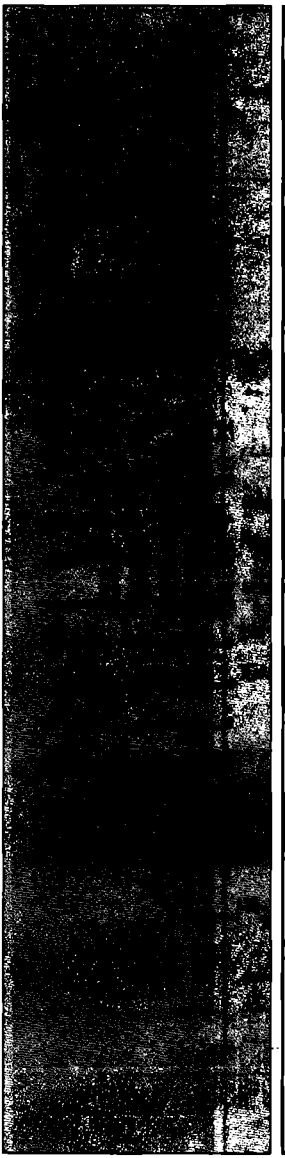

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير

فخري كريم

الاشراف الفني

محمد سعيد الصكار

سورية - دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون- جانب فندق السفير

almadapaper.com

almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

مجاناً مع جريدة البيان

البيان

■

رئيس التحرير التنفيذي

ظاعن شاهين

المدير العام التنفيذي

سامي القمزي

سكرتير التحرير

حسين درويش

■

هاتف ٤٠٦٤٢٥٦

فاكس ٣٤٤٥٢٥٧-٣٤٤٧٨٤٦

ص.ب: ٢٧١٠-دبي- الإمارات

انترنت http://www.albayan.ae

e-mail:books@albayan.ae

الكتاب للجميع

المحتويات

١ – خزين اللامرئيات	9
٢ – المنحدر	21
٣ – امرأة الصمت	39
٤ – النهاية الثانية	49
٥ – وانغمرت بصمتي (نص قصصي)	63

خزين اللامرئيات

في ثنايا بعض النفوس ، لا كلها ، خزين من أحاسيس القناعة أو الرضا ، يفيض فيحيل ، مع الزمن ، مرارة الحياة وضغوطها الشديدة إلى حال مقبولة وغير مؤذية . فمع هذا الفيضان يصير العوز المادي اللعين عادةً لا ضرر منها كبيراً ، والحرمان أمراً قابلاً للاستبدال والنسيان .

حين كان أبي حيّاً ، تعودنا - أنا وأمي وشقيقاتي - على العيش بمستوى متوسط ، يضمن لنا طعاماً جيداً ولباساً لائقاً وخدمة متواضعة . كنا من سلالة عائلة كريمة كما يقولون ، خانها الدهر عدة مرات ففقدتْ ثروتها تدريجياً ونزلتْ درجات في سلم المجتمع . بقي لنا ، وقد شاخ أبي ، أن نقتات على راتب تقاعده الضئيل .

كنا أربعة أطفال ؛ أنا وثلاث بنات أصغر مني ، رُزق بنا أبي من زوجته الثانية والدتي ، وقد جاوز الخمسين . لم يكن ذلك ما كان يريده لنفسه أو لزوجته أو لأبنائه ؛ غير أن ما لا يمكن الرهان عليه حين الزواج ، هو وقت ولادة الأولاد . وهكذا ، بعد عشر سنوات من عقد قران والديَّ ، فتح الله عليهما باب الرزق فجئنا نؤنس وحدتهما ونزيد من ثقل المسؤولية على كتفي أبي .

إلا أننا ، أنا وشقيقاتي الثلاث ، لم نشعر بوطأة العوز علينا

مطلقاً ، إلا حين توفي والدي فجأة بعد مرض لم يستطع مقاومته طويلاً . حينذاك ، وكنتُ في السادسة عَشْرَةَ من عمري ، هبطت بنا الدنيا وجار علينا الزمان لغير سبب مفهوم .

كنتُ في الصف الثالث المتوسط ، أتشوف بحماس لإنهاء دراستي الجامعية ، غير أني لم أكن صلب الروح ولا قادراً على مقاواة الشرّ المحيط بي في العالم ؛ فحين جاء صاحب الدار التي كنا نسكنها في « رأس الچول » بأطراف محلة « باب الشيخ » وطالبنا بأجرة الشهرين الماضيين ، لم أستطع حتى أن أعتذر له بشكل ملائم ، وسمحتُ له ، لا أدري لماذا ، بأن يُسمعني كلمات فظة وغليظة لم أرُدْ عليها .

واغرورقتْ عيناي بالدموع وأنا أروي لوالدتي ما جرى لي وكيف أن هذا المالك الوضيع الأصل لم يحترم ذكرى والدي ولا سمعة عائلتنا .

احتضنتني بحنان وقالت لي :

– ليغفر الله له ؛ ولكن ، اسمع يا ولدي ، عائلتك كريمة . . . هذا أمر صحيح ؛ عائلتك لا تملك مالاً . . هذا أمر لا يصح ولا يقبله أحد . تعال ندبّر حالنا .

وتدبّرنا حالنا بالفعل ، فانتقلنا إلى دار أخرى أصغر وأرخص أجراً ، وتركتُ دراستي بعد أن وجد لي خالي مكاناً في معهد صناعي أدرس فيه المكننة في مصافي النفط وأتناول أجوراً أثناء الدراسة .

لم تتذكر والدتي ، الأمية المتزنة في تفكيرها ، أيام العزّ التي عاشتها مع والدي ولا تحسّرت كثيراً على ما مضى ، بل ركزت اهتمامها بتلقائية محببة على ما تملك الآن . . هي وبناتها وابنها الذي يشتغل ويكسب نقوده بشرف . كانت تملك ذلك الخزين النادر من مشاعر القناعة ، فعملت على جعلنا نحتفل بأول راتب استلمته وأنا ما أزال بين سني المراهقة والشباب . جمعتنا ، في المساء ، حول مائدة صغيرة ، وضعت عليها كعكة جميلة تعلوها شمعة واحدة ثم أطفأت الضوء الكهربائي وخاطبتنا :

– انظروا إلى أنفسكم ، انظروا ما أجملكم! ما أحلى هذه الوجوه الشابة النضرة! لننسَ كل شيء ، غير ما نملك من صحة وجمال .

كانت أمسية رائعة ، رَسَخَتْ في أذهاننا ، أنا وشقيقاتي ، طوال العمر .

ولا محيص بعد ذلك من أن تمضي الأيام بنا وتجلب معها ما تجلب من منغصات ومسرّات ومتاعب . لم أتخرج بسهولة من معهد المكننة البترولية ذاك ، وقَبِلْتُ ، برحابة صدر ، أن أعيد سنة دراسية أخرى ؛ فقد كانت في الإعادة ، حسب رأي والدتي ، فائدة كبيرة لا شك فيها .

تخرجتُ ونُسبتُ مباشرة للعمل في أحد المعامل للتصفية البترولية يقع في ضاحية غير بعيدة عن بغداد . كنا نعيش بتوازن مادي ونفسي نحسد عليه . لم ننتقل من دارنا المتواضعة ولم نقبل مساعدة من أحد ؛ كما لم ينفرط ، مع الزمن ، تآلفنا ولا التمامنا حول تلك المرأة الفياضة بالمحبة والفهم ؛ ولم أحسد أخواتي حين استمررن في دراستهن ، بل غبطتهن . وكنت في الخامسة والعشرين من عمري حين خُطبت إحدى شقيقاتي وتزوجت . لم أفكر آنذاك بالزواج . ناقشت الفكرة ، بهدوء ، مع والدتي فانتهينا إلى نتيجة مرحة ومشرقة هي أن القطار لم يفت بعد عليَّ .

كنت أصبحتُ ، بعد الثورة ، مسؤولاً عن إدارة قسم التصليحات في منشآت «الدورة» النفطية ، فزاد راتبي لكن طموحي لم يزد . كان لدي بعض الخزين من أحاسيس القناعة الذي تملكه والدتي ، وكنتُ مرتاحاً . لم أكن فيلسوفاً ، غير أني وجدت الحياة أو ، إذا أردنا الدقة ، معروضاتها ، لا تترصد للإنسان ولا تسعى إليه كي تغريه ، بل الحقيقة الخفية هي أن الإنسان بذاته ، الذي يحرّض نفسه على التمني والاشتهاء ، وعلى حب التملك والسيطرة وارتكاب الجرائم باسم الطموح المشروع . هذه الخاطرة قلتها لوالدتي ، الأمية التي لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، ففهمتها وأدركت أبعادها وتأثرت بها ، فقامت لتقبلني وتدعو الله ليحفظني . كنا وحدنا في دارتنا الصغيرة ، بعد أن تزوجت شقيقتايَ الأخريان خلال العام الماضي ، لكننا لم نكن نشعر بالوحشة ، فقد كانت سُنة المجتمع البشري أن تتزوج الشقيقات ، وأن يمضين إلى بيوت أزواجهن ليعشن حياتهن الخاصة . ذلك النهار ، بداية الخريف ، كنتُ في

الثامنة والعشرين من عمري وكنتُ منكباً على العمل ، غير منشغل بشيء ، حين طلبني الدكتور أحمد راغب المدير العام لمؤسسة معامل التصفية ، فذهبت أغسل يدي وأبدل ثيابي استعداداً لمقابلته ، دون أن أتساءل عن سبب هذه الدعوة الغريبة بعض الغرابة . لم أكن قلقاً ، هذا هو كل شيء . جلستُ منتظراً في غرفة السكرتيرة دقائق قليلة ، أدخلوني بعدها إلى مكتبه الفخم . كان في حوالي الأربعين ، جهمَ الطلعة ، أنيقَ الملبس ، حادَّ النظرات ، تلقاني بترحيب متحفظ :

– تفضل سيد عبد الرحمن . تفضل اجلس .

ثم قام يصافحني .

كنتُ سمعت مراراً عن استقامته وصلابته الإدارية ، فخمنت أنه ، ربما ، يريد أن ينقلني إلى معمل آخر برضاي . لم يهمني الأمر كثيراً ؛ إلا أنَّ طلبه كان أبسط من ذلك . رجاني ، بسبب ما يعرفه عن خبرتي العملية بالمكائن وتصليحها ، أن ألقي نظرة على جهاز التدفئة النفطي في داره الحكومية قبل أن يبدأ بتشغيله ، فقد أصابه عطب في السنة الماضية ولم يتم تصليحه كما يجب . ثم أضاف أن داره هذه من ممتلكات الدولة ، وأنه يخشى أن يستقدم عاملاً جاهلاً فيفسد الجهاز بدل أن يصلحه . أيدته في أقواله مبتسماً وسألته بأدبٍ متى يفضل أن أبدأ العمل فأجاب : حالاً إن أمكن ؛ ثم كلم السكرتيرة ورجاها أن تخبر سائقه أن ينقلني إلى بيتهم ويعود بي بعد ذلك .

لم يكن مسكن السيد المدير العام بعيداً عن المعمل ؛ إذ لم تمض إلاَّ دقائق عشر حتى أشار السائق إلى دار فخمة ، بيضاء بطابقين ، لاحتْ لنا في نهاية طريق مقيّر نظيف .

كانت محاطة بحديقة واسعة ، بدت لي أشجارها الخضراء تتلامع تحت شمس أيلول ؛ وكانوا على علم بمجيئي ، إذ رأيت البستاني ينتظر قرب الباب الخارجي والخادمة واقفة في الشرفة مقابل المدخل الرئيس . دلتني على قسم من الجهاز نُصب في الجهة الخلفية من الدار . كانت شابة مؤدبة بثياب نظيفة ، تتقن الكلام باحتقار مع أمثالي .

قضيت بعض الوقت أفحص بدقة المحرك الأساسي ، فاكتشفت فيه خللاً بسيطاً ناتجاً عن عبث من قبل ناس جاهلين . أصلحته دون عناء كبير ، ثم أردت أن أفحص بقية التأسيسات داخل البيت فناديت على الخادمة وطلبت منها أن تخبر السيدة بذلك وترشدني إلى الداخل . تم الأمر خلال دقائق ، ولم أعثر على أي خلل في الآلات الداخلية ، فخطر لي أن أشغل الجهاز بأكمله لأتأكد من أنه يعمل بانتظام . أخبرت الخادمة بفكرتي كي تعرضها على سيدتها . ترددت قليلاً ثم رجتني أن أنتظر في الشرفة الخارجية ريثما تخبرها . كنت ملطخ اليدين ببعض دهونات الجهاز السوداء ، فأخذت أمسحها بمنديل ورقي . بدت لي الحديقة من الشرفة ، شاسعة لا نهاية لحدودها ، وأشجارها العالية المتمايلة تخفي خط الأفق . سمعتُ الصوت الدافئ الأليف قبل أن ألتفت .

– العفو سيد ، هل تجد ضرورة . . .

كانت في بدلة خروج زرقاء فاتحة ، تقف ، مشعة بألوانها ، في إطار الباب . رأتني حين استدرت إليها .

– آه . . عبد الرحمن! سيد عبد الرحمن ؟ أنت ؟

ورفعت يدها ، المغطاة بالخواتم ، إلى فمها .

كان في ظني ، طوال حياتي ، أن الهدوء لا تعقبه عاصفة ، وأن من الممكن أن يستمر النسيان والبطء والتراخي في المعيشة حتى النهاية ؛ ولم أكن مستعداً لتغيير رأيي هذا ، غير أن والدتي لم تقبل هذا الرأي مني .

قالت :

– كيف استطعتَ أن تنسى « خديجة » واسمها ، ولم يمضِ وقت طويل منذ تركتنا فجأة ؟ ولكن . . . ما أغباني! إنها عشر سنوات ، لا بل اثنتا عشرة سنة وربما أكثر . يا لله . . كأنها ساعات! تقول إنها تريد بإلحاح أن تراني ؟

فهززت لها رأسي .

كانت تأتي إلى دارنا برفقة والدتها بين الحين والآخر ؛ صبية في الثالثة عشرة من عمرها . . متألقة ، سوداء العينين والشعر ، ناصعة بياض الوجه ؛ وتتركها والدتها لدينا ، لا أدري لماذا ، فتأخذ بمساعدة أمي وشقيقاتي في شؤون الدار ؛ وكانت شغوفة بي بشكل مكشوف ، لا تعصي لي أمراً أبداً ، وتسعى لخدمتي بكل الطرق . إلا أني لم أكن أعيرها اهتماماً ، وكنتُ في عمري الموحش ذاك ، الرابعة عشرة ، منعزلاً خجولاً متكبراً على الفتيات الصغيرات ؛ وكانت «خديجة» تتابعني بنظراتها الساطعة ، وخدودُها الوردية تزداد احمراراً كلما كلمتها أو خطر لي أن أطلب منها شيئاً .

تابعت والدتي حديثها :

– تقول من كانت ؟ ولكنها . . ألا تعلم ؟ ابنة رئيس العرفاء «علي أصغر» الذي كان تحت إمرة خالك ومرافقاً له ؛ وأمها المسكينة كانت تأتي تزورني محبةً بي ، وتبقيها عندنا كي تساعدني وتلعب مع البنات ريثما تكمل هي خدمتها في بيت خالك . يا للقدر! تقول إنها زوجة مديركم العام ؟ يا للقدر!

كان عليَّ ، بعد ذلك ، أن أعيد التوازن اللامرئي لحياتي التي أردتها ، دائماً ، بسيطة ومسطحة . ولكن الذكريات لم تترك لي أن أنجح في هذه المهمة . كنا أحراراً كالطيور ، في تلك العطلة الصيفية ، أنا وشقيقاتي وخديجة ، نمرح ونلعب في بيتنا الكبير كما نشاء وتشاء البراءة والعبث واختلاط الأمور . وكانت تلك اللعبة «الختيبة» الجميلة والمراوغة ، هي التي تجذبنا أكثر من الألعاب الأخرى . ومعها وبازدياد اختلاط الأمور بيننا ، صار ، مرة ، أن تواجدنا ، أنا وهي ، مختبئين في غبش زاوية ضيقة وراء كومة من الأفرشة في إحدى غرف البيت . التصقنا ببعضنا حذو الجدار ، خشية أن ترانا أختي الصغرى ، والتحمت حرارة أجسادنا الفتية على حين غفلة . كنت بجانبها ؛ أحس بكتفي يمس صدرها والارتفاع الخجول لنهدها ؛ وكانت عيناها براقتين تشعان بهجة ، وخصلات الشعر الأسود تلتف حولهما ، وكنت أرتجف .

وددت ، لا إرادياً ، أن أندس بها أكثر وأكثر فأحطتها بذراعي . تملكني دوار لذيذ فضممتها إلى صدري ورحت أضغط بشدة وأتحسس جسدها ومنحنياته وكانت مستكينة إليّ .

لا تختبئ الذكريات عن وعي الإنسان دون سبب ؛ فهي مصدر شقائه إن لم يأخذ حذره ؛ وكنتُ ، بعد أيام ، في غمرة العمل ، أحذّر نفسي وأدعوها إلى اليقظة ، حين أرسل السيد المدير العام بطلبي :

– شكراً سيد عبد الرحمن ، ألف شكر . شغلنا جهاز التدفئة أمس وكان على أحسن ما يرام ، والفضل في ذلك يعود لك بالطبع . قل لي . .

ولم يرفع نظره ، بل بقي منشغلاً بفتح درج في مكتبه :

– أكنتم جيران أهل زوجتي قبل سنوات ؟

أجبته بالإيجاب ؛ فرفع رأسه وهو يمسك بلفافة بين يديه . لم ترقني نظرته . قدم لي اللفافة :

– هذه هدية بسيطة لك تعبيراً عن عميق شكري . أرجو أن تقبلها مني عربون صداقة بيننا .

خجلت من تصرفه وتلجلجت في الكلام بشكل مزعج . أردف وهو يقف :

– اليوم سيعود بك سائقي إلى بيتكم ليستدل عليه ، فزوجتي تروم أن تزور السيدة والدتك غداً ، إذا سمحت بذلك .

حدثتني والدتي :

– ارتمت عليّ ملهوفة وأخذت تقبلني قبلات لا تنتهي ؛ في يدي ووجنتي وكتفي وشعري ، حتى خشيت أن يقع ابنها الصغير من بين ذراعيها . سمته عبد الرحمن تيمناً باسمك . أترى ؟ أبكتني الحال الصعبة التي مروا بها ، وكيف ذاقوا الأمرين بين تقاعد أبيها ووفاته وهم في قريتهم التركمانية بنواحي كركوك . تقول كم أرادت أمها ، يرحمها الله ، أن تعود إلى بغداد . . إلينا ، إلا أن المرض أقعدها . ثم جاءها النصيب أخيراً فتزوجت منذ خمس سنوات واستقرت بها الحياة هنا .

كانت تسأل عنا كل من له صلة بمحلة «باب الشيخ» إلا أنها لم تصل إلى نتيجة ما . تقول وهي على وشك البكاء . . وقع قلبها إلى الأرض حين رأتك أمامها . . واقفاً ملطخ اليدين بثياب العمال . فتاة أصيلة حقاً! لو ترى ما جلبت لي ولشقيقاتك من هدايا .

لم أجد ما أعمله مع الذكريات التي أخذت تحاصرني حيثما حللت ، غير أن أستعيدها وأستعيدها ، لعل هذه الاستعادات المتكررة تستهلكها وتزيل آثارها من نفسي . كانت أعلم مني آنذاك ، في اتحادنا الصدفي ، بما بين الأنثى والذكر من صلات ولذاذات ؛ فما أن وضعت شفتيَّ على خدودها أقبلها بتردد ، حتى شعرت بذراعيها تحيطان بي وبشفتيها الحارتين تنشدان فمي وتطبقان عليه . كانت قبلة ناعمة مشتعلة رقيقة ؛ أخذت بلبي وذهبت بنا ، نحن الاثنين ، بعيداً عن العالم . ولم ننكشف وخرجنا ، بعد لأي ، راكضين نعاود اللعب بضوضاء مفتعلة ؛ ولم تفتني صورة شفتيها الحمراوين المضيئتين من أثر قبلاتي وهي تمر بلسانها عليهما .

لم أدر ، بعد ذلك ، ما الذي جدَّ في هذا الكون ، وجعلني مملوكاً لحالات ذهول مستديم ، كانت تقلقني أكثر مما تقلق والدتي . لم يحصل أمر جديد بالتأكيد ؛ فما سبب هذا التباطؤ في العمل والابتعاد اللامألوف عن عالم المكائن المحيط بي ؟

كل شيء كان معروفاً منذ زمن ، كان موضوعاً في مكانه من الزمن الأزلي ، سوى أن هذا القلب بين الضلوع لا يني يضطرب ويضطرب .

دعتنا ، كلنا ، عَبر زوجها المرموق المركز ، لزيارتها في دارتها الفخمة ولتناول طعام العشاء ؛ كلنا . . كلنا . الوالدة وأنا والشقيقات الثلاث وأزواجهن وأطفالهن . كلكم . . كلكم ، تأتون إلينا . ولم يكن لنا ، أمام هذا الحنين الجارف ، غير أن نقبل شاكرين .

خلوتنا الأولى تلك وقبلتنا ، التي خيل إليَّ أنها انطبعت على جبيني وعلى صفحة السماء ، تداخلت في ذهني وأعادت لي صور اللقاءات المجنونة الأخرى بيننا . تذكرت ذلك العطش إليها ، عطشاً من نوع

خاص ، يمتلك الروح والجسد وما بينهما . لم أعد قادراً على فراقها إلا هنيهات قليلة ، كنت أعمل جهدي بعدها كي أنفرد بها . لم يكن ذلك متاحاً طوال الوقت ؛ وما إن تفارقني ، حتى يعود العطش حاداً يحرق صدري وكياني كله .

كنا مضطربين بتعقل ونحن ننحدر سائرين عبر ممر الحديقة إلى مدخل دارهم . كان الخريف هناك ، يحيط بنا ؛ والمساء والسماء ذات الزرقة المؤسية ؛ وكنت أسير جنب والدتي ، جاهداً أن أضبط إيقاع نفسي مع الجو العائلي المألوف .

كانت دعوة العشاء مهرجاناً من العواطف المتبادلة والذكريات الشجية والحنين الذي لم يخمد ، والأضواء والصخب المرح وموسيقى الأطفال ؛ وكانت مع زوجها وطفلها الجميل ، تبدو على أعلى درجات الانسجام . لم تكن توجه إليّ الحديث إلا لماماً ، غير أنها كانت تقطع انشغالها بأي شيء لتصغي بالانتباه لما أقول . ولمحتها مرة ؛ جمعتنا نحن الاثنين لمحة هي لمحتنا . لم تدم إلا ثانية واحدة أو جزءاً منها . كانت واقفة أمام رفوف الزجاجيات في بدلة سوداء مطرزة باللآلئ المشعة ، تنظر إليّ نظرة متأملة ، متلامعة ، تشوبها مسحة من حزن لا يبين . ولم تدع لي أن التقي معها بالنظر ، وتحركت بخطوها المتزن إلى جهة أخرى . تلك النظرة نفسها هي التي ما تزال تحملها في عينيها الجميلتين في سنوات العهد البعيد . . عهدنا . في ذلك الضحى المتوثب بالضجة والمرح ، حين سرقنا من الزمن لحظات لا تثمن ؛ أم لعله القدر العجيب ، هو الذي لوى ذراع الزمن فمنحنا ، على غير عادته ، تلك اللحظات الذهبية . صعدنا بسرعة إلى الغرفة الخشبية الصغيرة التي كنا ندعوها « كفشكان » ؛ لم نتكلم ؛ لم نكن نتبادل الكلام ، لا كثيراً ولا قليلاً ، خاصة هي . انحشرنا بلهفة وعجلة ، خلف دولاب للملابس ، في زاوية ضيقة . كنتُ في قمة تعطشي لها ، لهذه الصبية ، لهذه الأنثى المذهلة . أغرقتنا القبل في بحر من الغياب عن العالم ، رأيت نفسي فيه أتشبث بنزع ملابسها بأيد مرتجفة . كانت مستسلمة لكل بادرة مني ؛

مستكينة ، صامتة ، تقبلني بشراهة وتغوص بنظرها في عينيَّ . وخلال ثانية ، وجسدانا عاريان ، ونحن مُقْبِلانِ ، لا شك ، على استكمال عملية الخلق العجيبة ، هاجمني رعب لا مثيل له وأنا أهمّ بها وأبادلها النظر وأرى في عينيها معنى خفياً من الروع والحزن العميق . . . العميق . تلك كانت نظرتها نفسها التي رمتها عليَّ قبل حين وهي تقف على مبعدة ، خلف الزجاجيات المتألقة مثلها . أية دلالة تجمع بين هاتين النظرتين المتباعدتين في الزمان ؟ لم أعرف ، ولا أزال .

إلا أن النكوص عنها بدأ آنذاك . . في تلك البرهة الزمنية بالغة القصر . أتذكر جيداً . . آه . . كم أتذكر جيداً حرارة بطنها وصدرها ونعومتهما ، وتلاقي أعضائنا وأفخاذنا .

ومرت العاصفة بسلام ، لكن أموري النفسية وغيرها ، انتكستْ بي بعد ذلك كما يجب .

انتهى مهرجان العشاء كما تنتهي المهرجانات الكبرى . . بالهدايا والقبل وبالوعود بزيارات أخرى وتبادل أرقام التلفونات ؛ وكنا سعداء ونحن عائدون إلى بيوتنا .

كنت أريد أن أهمل كل ما حصل بهدوء ، مصمماً على الاستعانة بخزيني من أحاسيس القناعة لإنجاز هذه المهمة ، لولا نظرة أخرى من عينيها .

كانت ، بحماس ، تسجل رقم تلفونها لوالدتي قبل أن نغادر ، حين توقفت عن الكتابة كأنها نسيت أمراً ما ، ورفعت عينيها ، لحظة ، وتطلعت إلى جانب حيث أقف . كان وجهها صقيلاً ، رائعاً ، وانعطافتها البسيطة نحوي توحي برغبة غامضة مستترة ، استطعت رغم اضطرابي ، أن أفهمها .

قالت ، عبر الهاتف ، بصوتها الدافئ :

– أشكرك يا عبد الرحمن على مخابرتك هذه . أشكرك كثيراً ، كنت أريد أن أحدثك ، فسهّلت لي ذلك . لو تعلم كم سعدت برؤيتكم .

– رؤيتنا ؟

– أنت لا تفهم معناكم عندي ومعزتكم . أنت ، أنت أولاً وآخراً وبقية العائلة . لا تؤاخذني عبد الرحمن لأني لا أستطيع رؤيتك ، ولكني مدينة لك بكل شيء .

– أنا ؟ لا أفهم شيئاً مما تقولين .

– آه ، كيف تقول هذا ؟ ألا تتذكر ؟ أنت لم تكسرني . كنت قادراً على ذلك . ألا تتذكر ؟ لقد حفظتني . حفظت لي حياتي ، ولم أنس ذلك . لن أنساه مطلقاً . أنت الذي منحتني حياتي هذه . . حياتي هذه . ولكن . . كيف أنت ؟ هل تعلم ما حصل لي وأنا أراك . . رأيتك . . ذلك اليوم . . وصمتتْ ؛ وكانت تغالب نفسها ، كما يبدو ، كي تستمر في الكلام :

– قالت لي الوالدة إنك سعيد معها . أليس كذلك يا عبد الرحمن ؟ قل لي إنك سعيد . ألست سعيداً ؟

– إلى حد ما . أنا بالأحرى قانع بما أنا فيه . لدي خزين من هذه المشاعر .

– وهل تكفي هذه ؟ هل تكفيك ؟

– وما العمل إذاً ؟

سمعتها تتنهد :

– أأستطيع مساعدتك . . كصديقة ؟

لم أجبها . مرتْ بيننا فترة صمت محرج . سألتني :

– ألا تزال . . ألا تزال مريضاً ؟ أعني . . أنت تعلم .

– تقريباً . لا فائدة مني كبيرة .

– حقاً! يا إلهي . لم تدم أوقاتنا السعيدة طويلاً .

استنجدت ، في اليوم التالي ، بذلك الخزين الذي حدثتها عنه بافتخار ، فلم ألق إلا العطش وسوء الفهم والأصداء الجوفاء . كان اسمها « خديجة » .

تونس – ٢٠٠١

المنحدر

حين بلّغني معاون مدير شرطة المنطقة بأمر نقلي إلى خارج بغداد ، لاحظت الشماتة تطفح من ملامح وجهه الأسمر . قلت له بثبات :

– سيدي ، أنا مأمور وخادم الحكومة ، وقد بلغتُ الثامنة والخمسين من عمري في خدمتها ، فلا مجال أمامي للاعتراض .

وأردتُ أن أبتسم لكني لم أستطع . كنت أعلم أنه كتب عني تقريراً سيئاً للسيد المدير ، بسبب قضية «سعدون أبو شوارب» ؛ فلقد صرفت حصته من الرشوة التي أوصلوها لنا . حصلت ظروف لعينة لم أستطع معها المقاومة فتصرفت بحصته . حلفتُ له ، في وقتها ، بحجتي إلى بيت الله الحرام ، إني لم أستلم شيئاً ، فتحركتْ عضلة تحت عينه اليمنى ، فعرفت أني سألاقي مصيراً مشؤوماً عن قريب ، فتلك كانت إشارة جسده حين يغضب بشدة ويكتم غضبه .

هكذا إذن حملني أمر النقل إلى «زرباطية» ، تلك القرية الكبيرة المجاورة لـ «مندلي» على الحدود الشرقية للعراق ، والتي لا يسكنها إلا عدة آلاف من العرب والتركمان والأكراد . وإذ أردتُ أن أخفف من وقع صدمة النقل عليَّ ، فقد قلتُ لنفسي إن مأمور مركز الشرطة في هذه البقعة النائية المهملة سيجد ، بالتأكيد ، الوقت الكافي جداً للراحة

والاستجمام ؛ فالقوم هنا قرويون مسالمون ، يعرف أحدهم الآخر ولا يجمعهم إلا الخوف من السلطة ؛ والسلطة هي أنا ، فقد كنتُ الموظف الاداري الوحيد فيها .

كانت « زرباطية » ، مثل اسمها ، لا تثير في الذهن إلا صورة مرتبكة عن منازل شبه متهاوية وطرق ترابية ملتوية ؛ إلا أن البيت الذي شيدته الدولة لسكن مأمور المركز كان مريحاً بحق ، ذا حديقة واسعة مليئة بالأشجار المثمرة ولا يبعد عن مقر عملي إلا خطوات قليلة .

بدتْ لي ، والحال هكذا ، فكرة الراحة التي تنتظرني هنا صحيحة رغم ما يحيطها من شبهات ، إذ كانت المظاهر تؤيدها بشكل من الأشكال ؛ « فزرباطية » هذه ، في الواقع ، قرية متسعة إلى حدٍ ما ، لكن اتساعها لم يسمح بأن يزداد عدد أفراد الشرطة على السبعة من ضمنهم العريف ورئيس العرفاء ؛ أولئك التعساء الذين كانت سمة الكسل والغباء مرسومة بوضوح على وجوههم ، مما أثلج صدري بسعادة غامرة ؛ إذ لم أكن أطمح إلاّ إلى الكسل والبطالة والابتعاد عن العمل المجهد ومشقة ملاحقة مَنْ سيدفع من المراجعين ومَنْ لا يدفع ، وكيف توازن بينهما وبين حاجياتك المادية .

جمعتُ أفراد الشرطة في صباح اليوم التالي لمباشرتي بالوظيفة الجديدة وألقيت فيهم كلمة قصيرة وأنا أحدجهم بنظرات نارية . قلت لهم تحديداً :

– لعلكم تعرفونني ، فأنا الحاج حسن الحاج علوان ، حججتُ مرتين ، ولكني إذا رأيتُ اعوجاجاً من أحدكم فسأنسى حجتي إلى بيت الله الحرام وأصير أخا قحبة لا يستحي ولا يهمه إلا القانون والحق ؛ ولذلك أحذركم واحداً واحداً ، لا تفكروا بخداعي فأنا ثعلب عتيق ، أستطيع أن أقطع رقابكم كما تُقطع رقاب الدجاج .

صدمتهم كلمة « دجاج » ولمحتُ علامات خوف تنطبع على وجوههم ، فارتحتُ لذلك وصرختُ فيهم آمراً كلاً منهم أن يصرح باسمه الثلاثي ثم ينصرف . كان بينهم شرطي واحد من أهالي « زرباطية »

يدعى «عقرب» ؛ ولم يكن يختلف في شكله كثيراً عن تلك الحشرة ؛ فاللون الأسود بمختلف درجاته يتراكم على وجهه ويكاد يخفي أماراته . ورغم استكانته الظاهرة ، فقد انتبهت منه إلى نظرات حادة يلقيها علينا في أوقات معينة ؛ فعرفتُ أني يجب أن أتجنبه أو أحالفه اتقاءً للسم الذي يحمله .

بعد مضي شهر بالتمام ، في صباح باكر من اليوم الذي تلا توزيع الرواتب ، كنتُ جالساً في الساحة الخلفية للمركز أمام الحشائش والأشجار المتشابكة الأغصان ، حين هبط عليَّ «عقرب» كالمجنون ، لاهثاً متقطع الأنفاس وصرخ وهو يقف أمامي متصلباً يؤدي التحية :

– سيدي . . سيدي المأمور . . سيدي ، مدير المدرسة . . وجدناه قتيلاً .

– ما هذا ؟! ماذا تعني يا حمار ؟

– سيدي . . مدير المدرسة . . مقتول .

انزعجتُ بشدة ، إذ كنتُ على وشك أن أدخن سيكارتي الأولى بعد الفطور . صرختُ به أنا الآخر :

– من أين لك هذا الكلام يا حمار ، يا وغد ؟ قل لي .

– مقتول سيدي . رأسه مهشم بالتمام والكمال .

– سأقوم أهشم لك فكك الأعوج هذا . أين حصل الحادث ؟

– على الجهة الشمالية من «زرباطية» سيدي . على حافة المنحدر . بالضبط على الحافة . رأسه مهشم كلياً . رأيته في الدورة الأخيرة من حراستي .

كان سؤالي الثاني «لعقرب» .

– والقاتل ، هل اعترف ؟

– أي قاتل ، سيدي ؟ أي اعتراف ، سيدي ؟

– ماذا تريد أن تقول لي يا بغل ؟

– لا قاتل هناك ولا بطيخ ، العفو ، سيدي . لم نعثر على القاتل ولم يعترف .

وهكذا ، وبمثل هذه الكلمات العرجاء والملتوية ، بدأتْ محنتي التحقيقية في تلك القرية الواسعة اللعينة .

لم أجد بداً من التحرك ، فقفزتُ من مكاني وناديتُ بأعلى صوت :

- عريف كشاش ، شرطي مجبل ، شرطي كاغد ، حضّروا أنفسكم لاستكشاف مكان الجريمة معي وفتح التحقيق الأصولي . أنت يا حمار يا عقرب ، أحضر المخبر أمامي .

تراكضوا من هنا إلى هناك بفوضى تليق بالحيوانات ؛ ولم نخرج من المركز إلا بعد حوالي الساعة .

كان عددٌ من الأهالي يحيطون بالجثة ويتهامسون فيما بينهم .

تبين أن لا أحد شاهد القتيل قبل « عقربنا » ، فاعتبرته المخبر وبدأتُ ، بعد فتح المحضر ، بأخذ إفادته . لم يزد على القول بأنه أثناء قيامه بواجب الدورية والحراسة في المنطقة شاهد القتيل مهشم الجمجمة ؛ وملقى على حافة المنحدر وذراعاه ممتدتان إلى الأعلى ، فلما قلب رأسه عرف فيه مدير المدرسة السيد عبد الهادي مسعود ، فأسرع راكضاً إلى المركز .

كانت الساعة حين فتحنا المحضر تقارب التاسعة ، مما يعني أن المخبر شاهد القتيل حوالي السادسة والنصف أو قبل ذلك بقليل . ولما أكملنا ببطء قاتل تخطيط وضع الجثة ووصف حالتها ، جابهتنا مشكلة نقلها إلى المستوصف لحفظها تمهيداً لتشريحها . كانت هذه حالات مألوفة إليَّ حين كنتُ في بغداد ، أما في مكان مثل « زرباطية » فقد كانت حالة تعذيب من نوع خاص . دبّرنا عربة ذات حصانين ، إذ أن سيارة التاكسي الوحيدة كانت قد غادرت صباحاً في طريقها إلى « مندلي » . أكملنا نقل الجثة وأحضرتُ ثلاثة من المتفرجين الذين كانوا حولنا ، ليحضروا إلى المركز لتدوين أقوالهم . بعد ذلك انتقلنا إلى تفتيش المكان . أمرتُ الأفراد الأغبياء معي أن يقوموا بجولة بحثٍ حول مكان الجثة ، لعلهم يعثرون على السلاح المستعمل في الجريمة أو على أي شيء آخر يمكن أن يفيد التحقيق . تراكضوا ، مرة أخرى ، كمن فقد

عقله ، وأخذوا يتعثرون هنا وهناك ؛ يضربون الأرض والأدغال بأحذيتهم ثم ينحنون ليلتقطوا شيئاً ما يرمونه بعد لحظة ؛ وكنت آنذاك أحاول أن أخنق إحساساً تبثه في ذهني حاستي السادسة اللعينة ، تنذرني بأني على وشك السقوط في ورطة عميقة الغور . لا أدري لماذا تحذرني هذه الحاسة السادسة في أوقات معينة وتكون ، لسوء الحظ ، على حق في تحذيرها أغلب الأحيان .

ما إن وصلنا إلى المركز بعد تسليم الجثة إلى الطبيب المناوب في المستوصف ، حتى تلقانا رئيس العرفاء «دايخ» بنبأ مشؤوم غريب :

- سيدي ، التلفون اشتغل . .

وكان هذا التلفون صامتاً ، كما قيل لي ، منذ أشهر ، فسألته :

- وبماذا اشتغل والعياذ بالله ؟

- سيدي ، معاون شرطة «مندلي» طلبك . يقول إن السيد المدير يريد منك القاتل دون تأخير .

- بهذه السرعة وصلت الأخبار إلى «مندلي»! وأي قاتل يريد يا ابن الكلب يا دايخ ؟

- قاتل مدير المدرسة ، سيدي .

- أنت مجنون!

- ليس أنا ، سيدي ، مدير شرطة «مندلي» .

وإذ كشف لي «عقرب» عن القرابة البعيدة التي تربط مدير المدرسة القتيل بأحد المتنفذين في العاصمة ، فقد أدركت أن حاستي السادسة صدقت ، مرة أخرى لسوء الحظ ، في التنبؤ بقدوم الكوارث .

بعد الانتهاء من تدوين الإفادات ورسم المخطط وكتابة سير التحقيق طلبت إحضار الشرطي «عقرب» أمامي وأمرت الجميع بالانصراف . خرجنا من غرفتي وجلسنا في الساحة الصغيرة التي تفصل المركز عن الحديقة .

كان الوقت كئيباً والسماء تميل بلونها إلى الزرقة السوداء بعد غروب الشمس ، ورائحة الدخان الكثيف المتصاعد من حرق الحشائش

حولنا ، تزيد من ضيق صدري . كان عقرب هذا هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يخبرني بمعلومات لا يعرفها غيره ، قد يمكن أن ترفع بعض ستائر الغموض .

قال لي وهو يزوغ بعينيه عني كأنه لا يريد الكلام :

– سيدي ، معلومكَ ، عبد الهادي القتيل أصيل مدينة . . .

وسكت ثم أشار بذراعه إلى الغرب ، ففهمتُ قصده وتوقفت نبضات قلبي . استرسل :

– وهو جاء إلى «زرباطية» مغضوباً عليه كما تعلم سيدي . يقولون . .

وقام بحركة دائرية من يده نحو فمه بمعنى «بلع» :

– عشرة آلاف دينار ، حين كان أمين صندوق المتصرفية في بعقوبة . غيره يأكل ، معلومك سيدي ، عشر سنوات سجن على الأقل . أما هو . . هو عُين ، مؤقتاً ، مديراً للمدرسة هنا . لماذا «زرباطية» ؟ الله أعلم . أنا لا أعرفه . رأيته مرة أو مرتين حين سجلتُ خادمك ابني «ذيبان» في المدرسة . هو ، بالحق ، إنسان شاب لطيف . يشرب يومياً في نادي الموظفين ويذهب مساء الخميس إلى «مندلي» . يبيت هناك ليلته ويرجع الجمعة مساءً . شاب في الثلاثين ، غير متزوج . . معلومك سيدي .

لم أقطع حديث «عقرب» المطاطي هذا ، لعلمي أنه قد يبوح لي ، دون أن يريد ، بتفصيل صغير قد يخدم التحقيق ؛ فحاولت ، جهدي ، أن أجد أمراً شيقاً في هذره ذاك . سألته :

– من كان يسكن معه في «زرباطية» ؟

– امرأة عجوز يقولون إنها أمه ، والله أعلم .

– ولماذا لا تكون أمه حقيقة ، يا خفيف العقل ؟

رفع ذراعيه حائراً ولم يجبني . كانت أمور هذا القتيل عادية ومشبوهة في الوقت نفسه .

– هل عرفتَ يا عقرب الدين ، ما كان يفعله المرحوم في «مندلي» ؟

- سيدي ، اعذرني .
- لا تكن حماراً يا بغل . تكلم بما تعرف .
- نعم سيدي . يقضي الليلة في بيت مشبوه .
- عجباً! هناك في «مندلي» ؟
- ولِمَ لا ، سيدي ؟
- من أين تعلمتَ «لِمَ لا» هذه يا غبي ؟

ضحك عقرب ضحكة غريبة وتقلّب في جلسته حائراً كيف يجيب . أمرته :

- استمر ؛ وهذا البيت تعرف به السلطة ؟
- كيف لا ، سيدي! عليه مراقبة . وهو ، كما قلتُ ، يدبر عودته إلى «زرباطية» ليلة الجمعة ، وصباح السبت تراه منتفخ الوجه ، مغلق العينين ، يتجول بين الصفوف كالسكران .
- ما شاء الله .

وقطعَ علينا حوار المعلومات هذا ، على حين غرة ، رنين شديد مزعج من التلفون ، فقفزت كالملسوع وأسرعت أرفع السماعة . ركض أفراد الشرطة وأحاطوا بي وهم في وقفة الاستعداد . هتفت :

- مأمور مركز شرطة «زرباطية» . . تفضلوا .
- الله يساعدك ، حاج حسن . كيف الصحة ؟ أنا المعاون «عباس أبو كحلة» .

كنا نعرف بعضنا بعضاً ، معرفة العدو لعدوه ، فقد اشتغلنا سوية في «الكاظمية» منذ عشرة أعوام . أجبته بصوت عال :

- نعم سيدي . تفضل .
- ليس لدي وقت طويل ، حاج حسن ؛ فقد سبق لي أن تكلمت معك . عندك أسبوع واحد فقط ، تجلب لي قاتل عبد الهادي . هل فهمت ؟ أسبوع واحد . . سبعة أيام . تصبح على خير .

وقطع الاتصال .

قبل أن أعيد السماعة إلى مكانها ، انتابتني رجفة غريبة لم أستطع

إخفاءها عن أعين أفراد الشرطة المرعوبين . كنت متورطاً دون خطأ مني ، وحائراً كأني مشتبك بخيوط عنكبوت خبيثة . ولا أدري لِمَ خطر لي أن أدمج هؤلاء الأغبياء المحيطين بي في محنتي ، فوقفت هاتفاً بهم مضخماً الأمور :

– هذا مدير شرطة «مندلي» يا أوباش . إن لم نجد قاتل مدير المدرسة ، كسَر رؤوسنا جميعاً . هيا معي نقوم برصد مكان الجريمة والتوسع بالتحقيق .

أمرت «عقرب» أن يسير حذوي ويكمل حديثه عن تاريخ القتيل في «زرباطية» ، ثم خرجنا جميعاً من المركز باستثناء رئيس العرفاء «دايخ» توقعاً للطوارىء . كنا نتقدم متعثرين ، على الطريق الترابي الملتوي ، المضاء إضاءة سيئة ؛ وكان «عقرب» متقطع الأنفاس في محاولته أن يتكلم مع بقائه محاذياً لي :

– سيدي ، نعم . . معلومك ، القتيل انقطع عن الذهاب إلى «مندلي» في الأشهر الأخيرة . يقولون . . غريبة سيدي!

– لماذا ؟ لعله تاب واستحى من نفسه .

– نعم سيدي . معلومك . . يمكن .

كان الموقع ، حيث عثر على الجثة ، ذا تكوين شاذ بعض الشيء ؛ فهناك المنحدر الذي يتصل بالمدينة في منطقة ضيقة ؛ وهو منخفض حاد تملؤه الأشجار الكثيفة وينتهي بعمق عشرين متراً إلى قاع ضيق يتكون فيه نهر أثناء الشتاء وموسم الأمطار .

وبمستوى أعلى المنحدر ، يمتد الطريق الترابي الذي كنا نجهد سائرين عليه ؛ ولا تتصل سلسلة بيوت «زرباطية» بهذا المنحدر ، إلا في نقطة واحدة هي الموقع ذاته الذي عثر فيه على جثة القتيل . بعد ذلك تبتعد بيوت الأهالي المتواضعة عن المنحدر وتستدير بعيداً عنه . أما البيت الوحيد الذي يفصله الدرب عن المنحدر فقد كان بيت «الحاج نصار» ، صاحب المقهى الوحيد في «زرباطية» ، والذي يُعرف عنه أنه رجل وقور ميسور الحال وذو سمعة طيبة في البلد .

كانت الدار مطفأة الأنوار حين وصلنا أمامها . قال «عقرب» :

– هذه دار «الحاج نصار» سيدي ، صاحب المقهى . معلومك ، هو من أهالي «زرباطية» أباً عن جد .

– أين هو الآن ؟

– في المقهى سيدي . يبقى فيها حتى الساعة العاشرة .

– وعائلته ؟

– زوجته توفيت في السنة الماضية ؛ بقيت والدته وابنته «رابحة» وابنه «عبد الرزاق» الذي يدرس في «بعقوبة» .

لبثتُ حائراً فيما يمكن أن أعمل ، والظلام قد اشتد حولنا ولا مجال لإلقاء نظرة على محل الجريمة . سألتُ :

– هل المقهى بعيد ؟

– كلا سيدي . رمية عصا ، سيدي .

استقبلونا في «مقهى نصار» بترحاب متكلف ، فدخلنا وجلسنا . كان المكان مضاءً بفانوس «فلورنس» ذي نور يميل إلى زرقة كريهة تحيل وجوه الجالسين القلائل إلى وجوه موتى . أمر لنا «الحاج نصار» بالشاي ، فأحضره خادم على صينية كبيرة وضعها باحترام أمامنا . طلبت من «الحاج نصار» بلطف أن يتفضل بالجلوس معنا . كان في حوالي الستين من عمره ، ذا لحية طويلة مصبوغة بشكل رديء ودشداشة بيضاء تبرز كرشه الكبير المدور . لم تعجبني طريقته في السير ونظراته من وراء النظارة البيضاء ذات الإطار الفضي . صافحته مبدياً له احتراماً مصطنعاً فتقبل ذلك كأنه أمر طبيعي عادي . أشرت لعقرب أن يحضَر أوراقه ويقترب منّا ، فقام واتخذ له ، بتوجس ، مكاناً قريباً انكمش فيه . كلمتُ الحاج «نصار» :

– جئنا يا حاج نزورك ونتعرف عليك أولاً .

– لي الشرف يا حاج حسن .

– سجّل الهوية يا عقرب . إحلف بالله أن تقول الحق يا حاج «نصار» ، لأن هذه هي أوليات التحقيق كما تعلم . نحن نسأل شخصيات البلد لكي يرشدونا إلى طريق الصواب .

- إن شاء الله .

ثم أدى اليمين ببعض التوتر .

- حسناً يا سيدي الحاج «نصار» ، الجريمة وقعت أمام داركم في الصباح الباكر كما يبدو ، فهل يمكن أن أسأل منكم هل سمعتم أو رأيتم ، أنت أو العائلة ، شيئاً أو صوتاً غير معتاد ذلك الصباح ؟

خيل إليّ كأن عيني الحاج «نصار» غشاهما قلق واضطراب لحظة ثم زال تماماً . قال :

- أنا يا حاج حسن أغلق المقهى في العاشرة مساء وأعود مشياً على الأقدام إلى بيتي . وغالباً ما أجد العائلة نائمة . . والدتي وابنتي رابحة ؛ فآكل ما قسم الله وأغتسل ثم أخلد إلى النوم لكي استيقظ قبل صلاة الفجر فأتوضأ ثم أصلي وأخرج إلى المقهى . ذلك اليوم . . متى كان ذلك من فضلك ؟ آه . . نعم ، اليوم ، خرجتُ كالمعتاد دون أن أسمع شيئاً قبل ذلك ولا رأيت شيئاً غير معتاد .

- الجثة يا سيدي الحاج «نصار» كانت على بعد أمتار من باب داركم . . كيف لم ترها ؟

- تريدني أن أحلف مرة أخرى يا حاج حسن ؟

- حاشا . . حاشا الله . لا داعي . كلامك مصدق يا حاج «نصار» . أعوذ بالله .

تلك الليلة لم أستطع النوم إلا قبيل الفجر . أقلقني تهديد «عباس أبو كحلة» المبطن ، لمعرفتي بعمق نذالته وما يمكنه أن يعمل بي إذا وجدني ، أعزل ، بين يديه ؛ وزاد من قلقي وانزعاجي أن أدرك بأن عليّ ، في كل الظروف ، أن أجد شخصاً ما ألصق به التهمة ، حقاً أم باطلاً ، لكي أنجو بجلدي . تلك كانت محنة أخلاقية ، بذلت جهدي في الأعوام الماضية وبعد أن حججت إلى بيت الله الحرام ، كي أتحاشاها ، دون أن أعرف السبب . ذلك أن لقمة العيش تعمي الأبصار حقاً ، لكنها ، في أوقات معينة ، لا تنفع مطلقاً في كمّ فم الضمير لعنة الله عليه . لذلك لم يأتني النوم ورحت ، بلجاجة ، أستعرض ما مرّ عليّ هذا اليوم من حوادث وأقوال .

هل من المعقول أن الحاج «نصار» هذا لم يرَ الجثة ؟ لعله خرج من داره قبل ارتكاب الجريمة ، ممكن . أم أنه لم يرها لأنها كانت على حافة المنحدر ، مختفية عن الأنظار ؟ أو ، قد يكون رآها ووجد من الأفضل له أن يتجاهل وجودها وأن يمضي في طريقه لفتح المقهى ؟ وفي كل الأحوال ، كيف يمكن اعتباره متهماً أو مشبوهاً ، بمجرد أنه لم يرَ القتيل أو لم يخبر عن الجريمة ؟

نهضت صباحاً مكسّر الضلوع فأسرعت ، حتى قبل أن أغتسل وأحلق ، بطلب «عقرب» . أدخلته غرفتي :

– اسمع مني يا قذر . أنا أشعر ، لا أدري لماذا ، بأنك تغشني وتكذب عليَّ . ولن أقول لك الآن ما سأفعل إذا صدق ظني يا ملعون الأهل .

– كيف هذا ، سيدي . كيف هذا ؟

– إسمع إذن . تذهب الآن . . في التو . . إلى مقهى «نصار» ، وتبقى جالساً هناك حتى الظهر . تفتح أذنيك ، وتغلق فمك ، وتنصت إلى ما يدور من أحاديث وأقوال وإشاعات . تسمع كل شيء . أريد معلومات صحيحة ومضبوطة . ويا «عقرب» يا ابن العقارب ، ستجدني أنقلب إلى ذئب إذا لم تأتني بما أريد . وسأسحق رأسك كما تُسحق العقارب . هاك هذا الدينار ، ادفع به ثمن شاياتك وغذائك ، وعُد إليّ في الساعة الواحدة تماماً . هيا . . هيا .

لم أكن هادئاً ولا صافي الفكر ، ووجدت من الأحسن أن أشغل نفسي بمشاكل التحقيق ؛ لذلك خرجت مع «كشاش» وقصدنا محل الجريمة .

نزلنا بصعوبة إلى قاع المنحدر ، حيث مجرى النهر اليابس . كان المكان بارد الهواء ، ظليلاً ، يمنحك الشعور بأنك وسط غابة من غابات الأمزون . تمنيت لو قضيت وقتي جالساً هناك ، أدخن وأتأمل حال الدنيا!

بعد جولة تفتيش قصيرة لم أجد غير كتل من الأحجار الضخمة

وبعض القناني الفارغة وعلب السكاير والقاذورات الأخرى . عدت أصعد فاحصاً ، بعناية ، المكان الذي عُثر فيه على الجثة . انتبهت إلى آثار خفيفة تمتد حوالي أمتار ثلاثة ، نزولاً من مكان الجثة إلى قاع المنحدر . كأن القتيل تهاوى زحفاً ثم تشبث بالأرض محاولاً الصعود ، فجاءته الضربة القاضية . حسناً ، ماذا يعني كل هذا ؟

عدتُ إلى المركز شاعراً بالإحباط وبأن ذهني تحول إلى صخرة صماء ، ليس فيها أية شفافية أو أمل بفكرة نيّرة . وقبل أن أنتهي من غسل وجهي ويديّ ، رجع «عقرب» بوجهه الكالح المغلق ، من المهمة التي أرسلته للقيام بها .

– هل تصدق ، سيدي لا يريد أحد في المقهى أن يجيب على أسئلتي!

– ولماذا تسألهم يا بغل ؟ قلت لك انصت لكلامهم فقط .

– سيدي ، معلومك ، هم يثرثرون باستمرار وبلا فائدة .

– قل لي إذن ، بِمَ يثرثرون ؟

– لا شيء مهماً . يقولون ، الحاج «نصار» ، تراه تأخر ذلك اليوم ساعة في فتح المقهى وأن المرحوم القتيل كان على وشك السفر إلى بغداد بعد أسبوع ، للزواج من ابنة عمه ، ولكن المصيبة وقعت عليه . سبحان الله ، تقدرون وتضحك . .

– اخرس يا بهيم . أنت تتكتم على أمور أخرى . أنا الذي يعرفك حقاً يا «عقرب» .

– لا والله ، سيدي . شربتُ عشرة استكانات شاي حتى امتلأت بطني وهؤلاء يحسبون عليَّ الكلام كأنهم يريدون أن أشتريه منهم!

– ألم تعرف ماذا جاء يفعل القتيل في تلك المنطقة ؟ بيته بعيد عن محل ارتكاب الجريمة ، أليس كذلك ؟

– ماذا أقول ، سيدي . صحيح ، بيته بعيد ، ولكنه في «زرباطية» . ماذا لديه يفعله على المنحدر ؟ الله أعلم . يقولون هذا طريقه منذ مدة .

- أهو أقصر طريق لبيته من النادي ؟
- الله أعلم . لا أظن .

ومع تسلل اليأس إلى قلبي ، بدأت أخشى أن يبدر مني عمل أحمق أندم عليه ، وأنا في أواخر أيام خدمتي اللعينة هذه ؛ فأخذت نفسي بتقليب الأمور ملياً قبل القيام بأية حركة .

بعد ثلاثة أيام ورد التقرير الطبي التشريحي بسرعة غير مألوفة من مستشفى « مندلي » ، ولم يحتو على أية معلومات جديدة علينا . الجمجمة مهشمة بآلة صلبة غير حادة والدماغ مفتت تماماً مما أدى إلى الوفاة .

جلستُ في مكتبي ذلك المساء أتأمل وأسترجع بعض الحالات الوظيفية . لم أكن أفكر بحل للجريمة أو بإيجاد قاتل ما لإنقاذ رقبتي ، بل كنت أحاول التنبؤ بما سيؤول إليه مصيري الوظيفي . سيعمل ذلك « العباس أبو كحلة » على إنزال الأذى بي . هذا أمرٌ لا شك فيه ، لكن . . ما نوع هذا الأذى ؟ النقل إلى منطقة أسوأ من « زرباطية » ؟ ليكن . النقل مع تنزيل درجة ؟ ليكن . ماذا يهمني في هذا العمر وقد بلغت الثامنة والخمسين أن أقضي سنوات قليلة أخرى في أي مكان بائس في العالم! ليكن إذن .

ثم إني ، يجب ألا أنسى ، أنني كالسيف مفردٌ في الحياة ، لا زوج ولا ولد ولا تلد ؛ ليكن إذن ألف مرة . داخلني ، تلك الليلة ، ارتياح عجيب واستغرقت في نوم عميق دون كوابيس حتى الساعة التاسعة . بدا لي أن اكتشاف وقائع المسيرة الحياتية ، ماضيها ومستقبلها المحتمل ، يمنح الإنسان نوعاً من الرضا والقناعة ؛ وهي الأمور التي كنت أفتقدها تلك الأيام . لذلك ، حين خابر المعاون « عباس أبو كحلة » بعد أيام ثمانية وسألني إلى أين وصلت قضية مقتل المرحوم عبد الهادي مسعود مدير مدرسة « زرباطية » لم يساورني أي قلق أو تخاذل وأجبته بأن التحقيق لم ينته بعد ؛ وأننا لم نتحصل على أي دليل أو أثر يدلنا على هوية القاتل . كنت مسروراً لموقفي ذاك ؛ وحتى حين صرخ بي :

- هكذا إذن! ما شاء الله . لملم أغراضك يا حاج حسن واستعد .

مكثت مسروراً دون تكلف ، غير آبهٍ بقطعه الاتصال كما هي عادته .

لم يتأخر رد فعل «أبو كحلة» إلا خمسة أيام ، كما أتذكر ، وجاء أسوأ بكثير مما توقعت . . إحالة على التقاعد لافتقاد الكفاءة . أردتُ ألا أحنق ، لكنيَ لم أستطع ، وأخذت أجمع أشيائي وأنا لا أكف عن إرسال الشتائم واللعنات والأدعية بالشر على كل الكفار الظالمين . وودعت أولئك الأنفار والأوباش واحداً واحداً ، وأثارني عاطفياً أن ألقاهم على وشك ذرف الدموع لفراقي!

عدتُ إلى بغداد أتابع قضية تقاعدي حتى أكملتها بمشقة ، واستقررت في مشتملي القديم في حي «البلديات» البغيد . لم أكن راضياً ولكني ، في الوقت نفسه ، لم أكن غاضباً . سرقوا مني عدة أعوام من الخدمة الشاقة المزعجة ، مما يوجب شكرهم لا التذمر منهم .

هكذا صرتُ أفكر عادة وأنا جالس في «مقهى عبود» القريب من منزلي ، أتمتع برفاهية البطالة والابتعاد عن المزعجات الوظيفية . كنتُ قادراً على نسيان أمور كثيرة ، إلا أن الغصة التي تركها عدم نجاحي في اكتشاف قاتل مدير المدرسة ، بقيت مستقرة في حلقومي . لم يزاولني ذلك الإحساس الغامض بأن «عقرب» وأشخاصاً آخرين يختفون وراءه ، كانوا يخدعونني بإصرار ولبثوا يخدعونني حتى النهاية .

لذلك ، ما إن هلّ عليَ وأنا في جلستي المسائية المعتادة في «مقهى عبود» ، ذلك «العقرب» اللعين حتى أدركت أن مشاعري كانت صادقة وأني كنت البريءَ الوحيدَ بين أولئك المجرمين .

هجم عليَ بطلعته الجهمة يقبلني من وجنتي ورأسي وصدغي حتى استعذت بالله ، وأمسكته بقوة فأجلسته جواريَ أسأله كيف اهتدى إليَّ بعد هذه الأشهر الطويلة وماذا جاء يريد مني ؟ جلس يتظاهر بالاستكانة التي تخفي خبثاً وشعوراً بالتفوق :

– سيدي ، هذا سؤال منك ؟ جئت أحمل لك تحيات وتمنيات ، والله ، جميع أفراد المركز وكل . . .

– عليك وعليهم السلام ورحمة الله . اكشف عن وجهك يا عقرب وقل لي ماذا عملتم ؟ ماذا عمل سيد حسين ، مأمور المركز الجديد ؟ تكلم فأنت اليوم ضيفي وأنا مسؤول عنك .

تلمظ في جلسته ، إذا كان لهذا الكلام أي معنى ، وشعرت به يتمطى ويتوسع ويتعالى ، وهو جالس . حدثني :

– دبرنا القاتل خلال ثلاثة أيام ، سيدي . كردي لا يعرف التكلم بالعربية . كان الله في عونه . وأكملنا القضية وأحلنا الأوراق وانتهى المشكل .

– وجدتم القاتل!

– الآن سيدي ، معلومك ، تسمح لي . ما تزال لا تفهم الأمور كما هي ؛ ولا أدري لماذا كنتَ تحوّر ما أقوله لك ولا تفهمه ، كما تفعل الآن .

صعد الدم إلى رأسي وشعرت بحرارة كبيرة فيه . هذا البهيم يستهزأ بي وينسى الاحترام في مخاطبتي :

– هكذا صار الكلام معي يا « عقرب » يا قليل الأدب ؟

قام من مكانه بسرعة وقبلني في رأسي ثم عاد إلى مكانه :

– خاطرك عزيز عليّ ، سيدي . والله وثلاث اسم الله . خاطرك عزيز . لا تغضب سيدي ولكنك كنتَ غشيماً لا تعرف عادات أهل « زرباطية » .

هدأتُ خلال لحظات بسبب الفضول الذي استبد بي ؛ فقد أدركت أن هذا الحشرة جاء ليفضح كل شيء وأن عليّ أن أتحلى بالصبر معه .

– إحكِ « عقرب » . لا تخش شيئاً . دعنا من « قاتلكم » . . الله يعاونه . كلمني عن تلك الأشياء التي تعرفها .

– سيدي والله ، لقد قلت لك كل شيء من أول ساعة . القتيل غريب عن البلد . ألم أقل لك ذلك ؟ وهو يذهب إلى « مندلي » كل خميس ، وأنت تعرف لماذا ؛ ويداوم صباح السبت في المدرسة بحالة . . قلت لك عنها . ثم انقطع عن الذهاب إلى « مندلي » . ألم

أخبرك ، سيدي ؟ لكنك لم تسلني ما معنى ذلك ، وأنا لم أرد أن أتطفل وأزعجك .

– بارك الله فيك . أزعجني الآن وقل لي إذن ما معنى ذلك يا ابن العقارب .

– يا سيدي ، معلومك ، لأنه وجد ما يشغله في « زرباطية » ، فلِمَ يذهب إلى « مندلي » ويتعنّى ويصرف نقوده ؟

– هل تقصد . . ماذا تقصد ؟

– ما أقصد إلا الخير . هو كان حسن النية أول الأمر ، واتفق معها على الزواج . . ووقع ما وقع بينهما . بقي « وقع ما وقع » مستمراً خمسة شهور سيدي .

– هل قلت لي هذا ؟

– كلا ، سيدي . خشيتُ أن أكون متطفلاً .

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . استمر .

– وجاء يوم وإذا المدير يريد أن يتزوج من ابنة عمه التي تسكن في بلدته البعيدة تلك . قلت لك هذا يا سيدي ، ألا تتذكر ؟ وأخذ يستعد للسفر والزواج والفتاة عرفت منه بكل ذلك ، وكانت ، كما يقولون ، في وضع غير طبيعي .

– ماذا تعني ؟

– ماذا أعني يا سيدي! دعنا نستر على العوائل .

– أهي من عائلة معروفة في « زرباطية » ؟

– الله شاهد يا سيدي . أنا أحكي لك هذا لأني وجدتك قد أوذيتَ يا سيدي بسببنا .

– بسببكم ؟ ومن أنتم يا ابن العوائل ؟

– أقول لك ، سيدي . الشرف عزيز ، حتى عندنا في « زرباطية » ؛ وأنتَ إذا كنتَ رجلاً فاخدع الرجال . . لا النساء .

آنذاك تملكتني الدهشة حقاً وصُدمت لما أيقنت أنها بالفعل غباوة لا مثيل لها من جانبي . أشرت « لعقرب » أن يكمل حديثه .

– ما بقي شيء كثير ، سيدي . أخبرتك أن سيارة التاكسي غادرت «زرباطية» ذلك الصباح في وقت مبكر . . أبكر من المعتاد . ألا تتذكر ؟ وكان فيها العصفور الذي طار . والحاج «نصار» تأخر في فتح المقهى ذلك اليوم لأنه كان في وداع العصفور الذي طار . هذا هو كل شيء .

– اسمع يا «عقرب» . والله ، المسدس العسكري لا يزال عندي ، وسأرميك حالاً إذا لم تفصح عما حصل . هل سمعت ؟

– أعوذ بالله ، سيدي ، ما هذا الكلام ؟ القضية انتهت وأنا في حل من أي ارتباط . كل ما في الأمر ، أن ما حصل هو مجرد تخمين وخيال . فالمدير كان يلتقي بها عادة في زاوية أسفل المنحدر في ساعات مجهولة من الليل . ولقد التقيا كما يلتقي الذكر والأنثى تلك الليلة ، فأخبرها بأنه سيتزوج ابنة عمه . لا ندري بعد ذلك ما حدث بالضبط ، ولكن يبدو أنها أسرعت تركض بجنون كأنها فقدت عقلها ، فحاول أن يمسك بها فحصل بينهما ما رآه الشاهد الوحيد . .

– شاهد ؟! هناك شاهد أيضاً ؟

– العجوز والدة الحاج «نصار» لا تنام الليل إلا نادراً . رأته من الشباك ، تحت أضواء الفجر ، وهو يحاول أن يرتقي المنحدر زاحفاً ورأتها ترفع حجراً كبيراً وترميه عليه فيصيبه في رأسه ويقضي عليه حالاً .

– يا للعنة! يا للعنة! وهي . . من هي ؟

– نحن في «زرباطية» ، سيدي ، قل عنا ما تقول ، لكننا نحترم شيوخنا وشرفهم وندافع عنهم وعن هذا الشرف من التلوث .

– أتريد أن تقول . . أن تقول إنها «رابحة» ابنة الحاج «نصار» ؟

– كلا . لا أريد أن أقول هذا ، سيدي . لا أريد .

تونس – آب ٢٠٠٢

امرأة الصمت

لا يحق ، في ديارنا ، لإحدى النسوة أن تصرح بالحقيقة علناً . تلك مقولة لم يتفوه بها أحد ولكنها ، كما قيل لنا ، مكتوبة بجلاء في اللوح السرمدي . النساء منسوبات لشؤون أخرى ، غير إعلان الحقائق . إلا أنني لم أرد ذلك ؛ ليس منذ البدء ، ولكن بعد أن تفاقمت الأمور ، وصارت الحقائق واقعاً ، إنْ كنا لا نعلنها فبسبب أنّا كنا نعيشها .

حين وردت لزوجي عبد الهادي رسالة بأن أخاه جواد قد شفي وأن العملية الجراحية الخطرة التي أُجريت له في «پراغ» قد أنقذت حياته ، بكى فرحاً وبلل الرسالة بدموعه . كان في الحادية والأربعين من عمره آنذاك ، وكان أخوه جواد في السابعة والثلاثين ؛ وهو لم يبكِ ابتهاجاً بشفاء أخيه الأصغر إلا لأن هذا الأخ كان موضع افتخار الأسرة كلها ؛ إذ كان على قدر من الشهرة في الأوساط الثقافية البغدادية كنحات ورسام وأديب ؛ تلك المواهب التي لا يملك زوجي منها شيئاً . لقد كرّس حياته لخلافة أبيه في علوة المخضرات ولتدبير أمور معيشتنا . لم يكمل دراسته مثل أخيه ، وتزوجني مبكراً ، أنا ابنة عمه ، ولم يدع لي أن أكمل دراستي الثانوية . كنتُ ، في جو العائلة ، مكتوبة باسمه ؛ ولم يستطع أن يطيل من انتظاره بعد أن رآني أكمل السابعة عشرة من عمري . كان

أبوه قد توفي منذ فترة قصيرة ، فصار هو المسؤول الوحيد عن العائلة وعن إدارة شؤون علوة المخضرات ، فبدا له أن يكمل دينه بالزواج . لم يدر بخلدي حينذاك أن أرفض ، غير أني أسفت لحرماني من إكمال دراستي التي كنت أجد فيها رفعةً غامضة تجعلني أحترم نفسي .

مضت السنوات العشر الأولى بقليل من المشقة ، ورزقنا خلالها بفتاتين جميلتين شعرت بأنهما عوضتاني عن دراستي الناقصة . وكان جواد ، شقيق زوجي ، هو الطفل المدلل في العائلة ؛ تدلله أمه وأخوه وبنتا أخيه وأنا . كان ، لاشك ، موهوباً ، يملك أن ينحت ويرسم ويكتب أدباً حينما يشاء ومتى أراد ؛ وبهذه القابليات استطاع ولم يبلغ الثلاثين ، أن يلفت إليه الأنظار ، وأن يكسب احترام وإعجاب أخيه ومعه العائلة كلها . ومع اتساع شهرته ، استقل مادياً وأمكنه أن يستأجر داراً صغيرة يسكنها بمفرده ويمارس فيها نشاطه الفني كما يشاء .

كان الشقيقان عبد الهادي وجواد ، طويلين طولاً ملفتاً للنظر ؛ غير أن زوجي ، بعد أن نالته السمنة ، صار عملاقاً ذا كرش بارز ؛ في حين بقي جواد محافظاً على رشاقته وانسجام جسده بشكل معقول .

كان العلاقات بينهما متينة ومطاطية ، فكل واحد منهما راضٍ عن نفسه وعن أخيه ؛ لا تعكر هذا الرضى أمور المادة التي تغلبا عليها بالتفاهم والتساعد ؛ فزوجي يعلم أن لجواد حقاً في موارد « العلوة » ، وهو لا يمنع عنه هذا الحق ؛ وجواد يعلم أيضاً أن لعبد الهادي عائلة ليست بالصغيرة يعيلها ويتحمل مسؤوليتها ، لذلك لم يكن يشتد عليه في طلباته المادية إلا بمقدار . وحين أمكنه أن يستقل مادياً مما تجلبه له أعماله الفنية من دخل ، لم يعد يطالب أخاه بأي حق حتى أمسك به المرض على حين غرة .

كان حينذاك في السادسة والثلاثين ؛ في الوقت نفسه الذي زاد فيه إلحاح الأخ الأكبر عليه بأن يستقر أخيراً ويتزوج ، فقد يفوت عليه الأوان دون أن يشعر ؛ وكان إلحاحه هذا يخفي لوماً لجواد على انغماسه في علاقات نسائية عابرة لا طائل من ورائها .

أتذكر مرة . كان يأتينا لرؤية أمه كل أسبوع ، فيجلس قربها ، يحادثها ويسامرها ويداعبها ويقبل يدها بين الفينة والفينة . ويبقى ينتظر عودة عبد الهادي من العمل ، فيجتمع شملنا في غرفة الوالدة ونتناول طعامنا سوياً . تلك المرة ، بعد أن انتهينا من ضجة الغداء ، إذا بجواد يناديني ويرجوني أن أجلس بعض الوقت أمامه ليرسم لي صورة نصفية . كم أخجلني طلبه! لم أستطع مجاراته ورفضت بحياء ؛ لكن زوجي عبد الهادي رحّب بالفكرة وأبدى إعجابه بها ، فاضطررت للاستجابة . فتح حقيبته وأخرج ورقة سميكة وأقلاماً ملونة ، ثم اختار لي مقعداً يأتيه الضوء من جهة معينة ، وطلب من أخيه أن يجلس وراءه . بقي لحظات ، أتذكر جيداً ذلك ، يتأملني بنظرات طويلة . ثم هجم على اللوحة البيضاء بأقلامه وألوانه ، فأخذ يخطط بسرعة غريبة بأقلامه السوداء والملونة حتى أنهى الصورة في أقل من ساعة . صفق زوجي سعيداً بما شاهد ؛ وإذ عُرضت عليَّ اللوحة ، أذهلتني تشكيلة الألوان والخطوط . كانت رؤيا جواد ، تظهرني إنسانة مشرقة الوجه ، تشع ملامحي ونظراتي بحنان وأمل وأشواق . أطّر زوجي الصورة وعلقها بافتخار في غرفة نومنا . لم يكن في الأمر أي سوء ، وبدا طبيعياً بعد ذلك أن يرسم جواد لوحة لأمه ولعبد الهادي وللبنتين .

ولأنه كان في عنفوان قوته البدنية والفنية ، وفي قمة شعوره بشبابه وبتفوقه ، لم نأخذ ، لا هو ولا العائلة ، بداية مظاهر مرضه مأخذاً جدياً ؛ ولم يَدُرْ بخلدنا أن تلك المظاهر تخفي دلالات خطيرة جداً ، حتى أوصى طبيب أخصائي بوجوب إرساله إلى خارج العراق لمعالجته . آنذاك ، سيطر علينا قلق كبير ، وأسرعنا ندبّر حالنا لاستكمال ما يحتاجه العلاج من مال واتصالات وتقارير . وها هي الرسالة تصلنا أخيراً بعد حوالي الشهر ، تبشّرنا بنجاح العملية وبشفاء جواد وبعودته القريبة .

حضّرنا له غرفة في الطابق الأول من دارنا هي أجمل ما لدينا من الغرف ؛ فالشمس تأتيها من الشرق ثم تستدير عليها لتلبث تضيئها إلى ما بعد الظهر . هي غرفة دافئة شتاءً ، باردة ذات ريح صيفاً .

ثم وردتنا برقية بساعة وصوله إلى المطار صباح أحد الأيام ، فأغلق عبد الهادي «العلوة» وخرج هو والبنات قبل ساعة من الموعد قاصدين المطار ، بينما بقيتُ مع الوالدة ننتظر .

ولم أدرِ متى بكى عبد الهادي ثانية ، غير أن عينيه حين عادوا كانتا محمرتين بشدة ومخضلتين بدموع جديدة . دخل ، هو وأصدقاؤه ، الدار يحملون بمشقة كرسياً كبيراً ينكمش عليه شخص خمنت أنه جواد . كانت قسمات وجهه صفراء ممصوصة ، وشعر رأسه تساقط نصفه وشابه الشيب . بدا خيالاً شاحباً لذلك الشاب الذي كان يفور صحة وقوة . ولم أفهم لِمَ لا يدعونه يسير بمفرده ، حتى واجهني عبد الهادي بعد حين ليخبرني بين شهقاته بأن أخاه مشلول بالكامل على وجه التقريب .

غريب كيف تفرض الحياة أحياناً أسئلتها الخاصة على الإنسان ، فلا يجد ما يقوله جواباً على حالات بشرية مستعصية في تناقضها الفريد من نوعها! فأمام صورة جواد ، متهالكاً باستسلام على كرسيه ، وقفتُ بكماء لا أملك ما أقوله لعينيه المعذبتين المتسائلتين .

ما معنى كل هذا ؟ حياة لا تستطيع أن تمنحها أي مبرر للاستمرار ، غير أنها تلبث باقية بإصرار . ما معنى هذا ؟ أم لعل علينا ، بدل أن نتساءل ، أن نفترض بأن من غير الممكن أن نجد معنى للحياة أو تفسيراً لها ، غير وجودها ذاته ؟ لم يكن جواد قادراً على ممارسة فعل العيش الاعتيادي دون معونة شخص آخر ، فاتفقنا مع ممرض من معارفنا على أن يساكنه ويعمل على مساعدته في كل أموره الخاصة لقاء أجر . ولأن محبة عبد الهادي لأخيه وشفقته عليه تتجاوز الحد المألوف ، فإنه لم يفكر لحظة في التكاليف المادية الباهظة التي وقعت على كاهله . كنا ، العائلة كلها ، نغرق جواد بعطفنا واهتمامنا ؛ وكنا نقضي أغلب الوقت في غرفته مع ذلك الممرض الصبور . حكى لنا عن الجوانب الأليمة في تجربته بالمستشفى ، وعن غربته هناك وعذابه ووحشة الشعور بالموت يقترب منه . قيل له ، منذ البدء ، إن نسبة نجاح العملية هي خمسة في

المائة . . خمسة في المائة فقط كان هو حظه أن يبقى على قيد الحياة . ولذلك ، لم يصدق بصره وسألهم أما يزال حياً ؟ كان حياً بالفعل ، ولكن على ساحل مهجور من نهر الحياة . آلمه أشد الألم أنه لا يستطيع تحريك أصابع يديه . قال لنا ذلك وعلى وجهه علامات حيرة وتظلم . ولم يصدق ما قيل له أنه ، مع تمارين معينة كتبوها له ، قد يستعيد نشاط عضلاته ، في الأطراف خاصة .

كان الممرض قد باشر في اتباع تعاليم الأطباء بإجراء التمارين لجواد ثلاث مرات في اليوم مؤكداً له ، عن تجربة ، بأن لها فاعلية كبيرة . وكنت أراقبهما وهما يتعاونان على إتمام الممارسات الحركية بما يمكن من إتقان وحيوية . وبسبب تركيز انتباهي على ما كانا يفعلان ، تعلمت آلية التمارين واستطعتُ مرةً أن أعملها بمفردي تحت إشراف الممرض .

كانت تلك بداية الهموم اللامرئية التي لم أتوقعها ؛ فأنا لم أكن سوى امرأة بيضاء القلب ، لا يسوؤها أن تحب ببراءة مثل أي طفل . كنت ، أمام ذلك الإنسان الضعيف المعوق ، المتشبث ليس بحياته حسب ، بل بفنه وطاقاته وبتبرير وجوده ، لا أستطيع أن أمنع نفسي عن مدّ يد المساعدة إليه ؛ ولقد مددتها بصفاء نفس لا شائبة فيه وباعتزاز .

بعد أكثر من شهر ، لم يعد بمقدور زوجي عبد الهادي تحمل نفقات البيت وراتب الممرض ، فاقترحت عليه أن يستغني عن خدماته لأن باستطاعتي تدبير مساعدة جواد على القيام بها . مكث لا يجيب ، ينظر إليَّ بشك ؛ فأفهمته بأن الأمر غير معقد أبداً وبأني كنت أراقب الممرض وهو يقوم بمهامه فحفظت تماماً كل ما أحتاجه للقيام بها . لا داعي للقلق ويمكننا أن نفيد من نقودنا في مجال آخر . أخبرنا جواد بالأمر فاستحسن الفكرة وزاد بقوله إنه يتحسن ببطء ولكن بصورة أكيدة وإنّه سيتحسن أكثر في المستقبل ، وإن بمقدور أي شخص أن يساعده في القيام بالتمارين . وهكذا غادر الممرض وحللتُ مكانه .

ثم بدا لجواد بعد أيام ، أن التحسن في تحريك أصابع يديه قد يسمح له بأن يخطط شيئاً على الورق ، وطلب جلب أوراقه وأقلامه قائلاً إن هذا نوع جديد من التمارين .

ثبّت الورقة أمامه وبقي يحدق فيها بنظرات فارغة وهو يحرك أصابعه الممسكة بالقلم . كان متردداً ، شبه خائف . لحظات ثم اندفع يرسم ويخطط بخطوط يعوزها الإتقان ، وجه امرأة قال عنها إنها كانت ممرضته في «براغ» .

تملكته غبطة شديدة وهو يرينا التخطيط ثم يضعه على مبعدة يتأمله بذهول . كان ، بالنسبة لنا ، بداية مثبطة لتبرير الاستمرار في الحياة ؛ غير أنها كانت بداية فحسب ، واظب على تكرارها بتفاؤل فأثمرت . . أثمرت حقاً .

جلبنا له كل أوراقه وألوانه فانهمك ، ناسياً نفسه وعالمه ، على الرسم والرسم دون انقطاع . كان يترك لي أن أقوم بالمساج لقدميه وساقيه قائلاً إنه يمرن أصابع يديه وذراعيه فلا خوف عليها .

لم يتباطأ تحسنه الجسدي أو يتوقف ، واستطاع بمعاونة أخيه عبد الهادي ومعاونتي أن يقوم ويقف على قدميه متكئاً علينا . ثم ، بعد أيام ، قام من الكرسي بمفرده . وفي ذلك اليوم نفسه ، ترجّى من أخيه أن يحضر له معدات النحت على الخشب ، ففي نفسه توق إلى ممارسة هذا الفن . وأضاف مطالباً بكمية كبيرة من ورق الكتابة ليفرغ عليها أفكاراً تساوره . جلبنا له كل ما طلب ، وكنا سعداء مثله .

في خضم تلك الأيام ، لا أتذكر متى بالضبط ، رغب إليَّ عبد الهادي أمراً خاصاً فاجأني . أراد أن أعلّم إحدى بنتينا قواعد المساج وكيفية إجراء التمارين لجواد ، لتقوم بها بدلاً مني . أخذتُ رغبته مأخذاً عادياً وسألته عن السبب فأجاب بتذمر أن لا داعي أن أستمر فيه وبأني لستُ الوحيدة التي تقدر عليه . كان جواد ، آنذاك ، قد أكمل نحت أول تماثيله الخشبية . . جذع امرأة رشيق متناسق ولكن تنقصه الليونة . لم يرتح له كثيراً وباشر بالعمل في تمثال ثان . كان إصراره وانشغافه بالعمل ينمان عن جهد حثيث للدفاع عن النفس .

بعد أسبوع كرر عليّ عبد الهادي طلبه بألا أعاود عمليات المساج والتمارين الرياضية فوعدته ، منزعجة ، أن أرشد إحدى بنتينا لتقوم بها بدلي . في ذلك اليوم نفسه ، كنت جالسة على حشية على الأرض ، أدلك ساقيّ جواد أثناء ما كان مشغولاً بنحت تمثال آخر من الخشب لجسم امرأة كامل وهي تحمل جرة على رأسها . كانت عضلاته مرتخية تماماً وهو متكئ بظهره إلى الخلف ، حينما شعرتُ بتصلب مفاجيء ينتاب ساقيه . رفعت بصري إليه فرأيته يتطلع إلى الباب . كان الوقت عصراً ، قبيل الغروب ، وكان عبد الهادي واقفاً في إطار ، مدلهم الملامح ، مشتعل العينين .

لم أجد في ذلك الموقف أية إشارة أو ما يشبهها ، تدل على ما قد يحصل لنا في المستقبل . ورغم اضطرابي ، ورغم الارتجافة الباردة التي اخترقت ظهري ، ظللت مقتنعة ، عن صواب أم عن غفلة ؟ ، بأن الأمور المفجعة العظمى لا تبدأ هكذا .

لم يخفِ زوجي غضبه عليّ وعلى كل شيء ؛ وكاد في قمة انفعاله وفقدانه السيطرة على نفسه أن يعتدي عليّ بالضرب . استفسرتُ منه ، بهدوء مع ذلك ، مما يشكو وماذا بدر مني فأوصله إلى هذه الحال ؛ فلم يستطع أن يجيب بوضوح وأخذ يكرر بأني لا أستجيب لطلباته وأني مشغولة بأمور تافهة لا تهمنا وأنه لا يقدر على تحمل هذه الأوضاع اللاطبيعية والنفقات . كنتُ ، منذ قديم الزمان ، أعرف عن عبد الهادي طبيعته المتسامحة اللينة ، وقبوله لأوساط الحلول وتحاشي الطرق المؤدية إلى الأزمات ؛ فما الذي جرى له أو جرى في العالم من حوله ، بحيث تغيرت طباعه هكذا ؟

سألته باستقامة عما حدث له فأفقده أعصابه على غير العادة ؟ نظر إليّ طويلاً . . طويلاً ، بعينين يغشاهما القلق ، ثم همس : لا فائدة ، لا فائدة . جرى حديثنا هذا في غرفتنا والساعة جاوزت العاشرة ليلاً ، ونحن في طريقنا للرقاد . أحسستُ به يتقلب في الفراش ، ملازماً الصمت . لم أتجرأ ، والخشية تملكني ، على معاودة السؤال منه . كنت

أتهجس أموراً لا أريد أن أصدقها معتمدة في ذلك على ما أعرفه عن زوجي وعن علاقته بي وبأخيه المشلول العاجز . أيكن هذا . . أيكن إذن ؟

لم أغيّر ، صباحاً ، أي مسلك من مسالكي اليومية في البيت ، من اهتمام بالوالدة والبنتين وجواد ؛ وكانت الأمور طبيعية متشابهة ، سوى أن جواد رجاني أن أعفيه من التمارين ، لأنه يجد اليوم في نفسه رغبة للانفراد ومعاودة الكتابة . تركته لحالة وقصدت المطبخ وبعض الهمّ ، مجهول الأساس ، يتحرك داخلي .

وأتذكر أن أسبوعاً هادئاً مضى منذ أن حدثني عبد الهادي حديثه المبهم ذاك . لم يعد إليه قط ، وأخذ بالغياب عن البيت ثم بالعودة في أوقات غير متوقعة . يفتح الباب ويدخل بسرعة ثم يسعى إلى غرفة أخيه ليسأله عن حاله . لم يكن في وضع طبيعي رغم محاولته إخفاء ذلك ؛ وكان ينظر إلى تماثيل النساء الخشبية بنظرات غريبة ، كما قال لي جواد ، وعلى وجهه سيماء شك ونفور . ماذا كان يتخايل له ؟ لم أسله ، وكنت أدفع عن قلبي هذا الجزع الذي صار يستولي عليَّ خلال الليل .

كنتُ متعبة جداً ذلك المساء ، ليس من القيام بأعمال البيت ، بل من تأثير الهواجس والأفكار السوداء عليَّ . ولأن عبد الهادي لم يعد إلى البيت طوال اليوم ولم يتصل بنا تلفونياً ، فقد تعشينا وجلسنا ، أنا والوالدة والبنات ، مع جواد نسامره ونبدي آراءنا بأعماله الخشبية ولوحاته ؛ حتى اقتربت الساعة من العاشرة والنصف ؛ فقمنا نأوي إلى فراشنا . أتذكر أني غرقت حالاً في نوم عميق ، بالغ العمق ، ثقيل كالحجر ؛ غير أني ، مع ذلك ، استيقظت في وقت ضائع وسط ظلام الليل . كنت مضطربة ، خافقة القلب . لم أدر على وجه اليقين أين أنا ، وطرقت أذنيَّ ضجة مكتومة في ناحية من البيت ، فهببت من رقدتي خائفة متوفزة . أرهفت سمعي . لا شيء ، لا شيء . لم أجد عبد الهادي جواري . قمتُ وأطرافي ترتجف ، فسرت نحو باب الغرفة أريد

أن أفتحه ، إلا أنه ارتد عليَّ في تلك اللحظة بشدة فكدت أسقط على الأرض ؛ ورأيتُ عبد الهادي يندفع داخلاً ويصفق الباب خلفه . لم يرني ، وأسرع يرمي بجسده الضخم على السرير . كانت أنفاسه ثقيلة مسموعة كالحشرجات ، وكان ، كمن مسته حال من الجنون ، يضع إحدى يديه على رأسه والأخرى على صدره وهو ينفث من فمه كلمات متقطعة غير مفهومة .

والآن ، إذ يوجه إليَّ سؤال ، أنا المرأةَ المنسوبةَ إلى الصمت : ماذا جرى ؛ وكيف جرى ما جرى ؛ ولماذا ؟ فبماذا يمكنني أن أجيب ؟ هل بالإمكان التعبير عن الصمت بالكلمات ، أو الإعلان عن الحقائق بالصمت ؟ تلك تلفيقات لغوية لا أتقنها ؛ لذلك كان عليَّ من أجل الاستمرار في حياة سوية ، أن أحفظ الحقائق في جانب من صدري وأتجاهل كل الأسئلة التي لا يليق بامرأة منسوبة للصمت أن تجيب عنها .

ولئن قام ، بعد رحيل جواد ، سدّ بين عبد الهادي وبيني ، شاهق كالجبال ، فذلك بسببٍ من جهله بدلالة تلك التجربة الإنسانية الكبرى التي خنقها في المهد . لقد خرجتُ من حياته كما خرج هو من حياتي بعد تلك الليلة ؛ وما تبقى لنا ، نحن الاثنين ، لا يمكن أن يطاله الصفح أو الغفران .

نيسان – ٢٠٠٣

النهاية الثانية

سار منحنيَ الظهر على الرصيف المترب ، بمحاذاة شاطئ النهر . غربت الشمس منذ حين ، لكنه لبث ماضياً في مسيرته ، تعتور خطواته البطيئة هِزَّةٌ غيرُ عادية ، تميل به إلى اليسار قليلاً . لم يكن يقصد أن يصل إلى أي مكان ؛ وفي هذه الناحية النائية ، خلا الشارع من المارة والسيارات . رأى النهر ينساب بهدوء على يمينه ، ثم عرضتْ له ، قبيل انحناءة الطريق المفاجئة ، شجرة جرداء تقوم بمفردها على جهة قريبة من الماء . خطفتْ عينيه إليها دون سبب محدد ، فتوقف يمعن فيها النظر . بدا له ارتفاعها لا يجاوز الأمتار الثلاثة ؛ وكان جذعها الغامق يلتوي عدة التواءات وتبرز منه أغصان متشابكة عارية تمتد إلى جهات عدة . تقدم منها بسكون . كان بملابس مهلهلة داكنة ، قميصلة وسروال ؛ يمسك في يده اليمنى بلفافة كبيرة ، حطَّ بها على الأرض قرب الشجرة . تَلَمَّسَ ، لحظة ، قشور الجذع اليابسة بأنامله ، ثم استند بظهره عليها وأطلق بصره يغرق في الأفق أمامه . كان الفضاء مترامياً ، لا تحدّه إلا بعض الأضواء هنا وهناك ؛ والسماء ، بزرقة شفافة رقيقة ، تتسع وتتسع بلا حدود ؛ وفي جهة منها أو جهتين ، برقت نجيمات بيضاء تخفق بخجل . خيل إليه كأنه يسمع أصوات المياه الجارية تتهامس بشكل

غامض على مبعدة منه . آنذاك ، ومن دون توقع ، انبثقت في ذهنه تلك الفكرة كأنها شمس صغيرة . . تبدأ الحياة حين لا تنتهي . كان مضطجع الجسد ، وروحه مليئة بالرضوض ، ولم يخطر له أن ما تبقى من طاقة في ذهنه ، وهو قليل القليل ، يمكن أن يجد أفكاراً طريفة قد تنير له سبيل العيش . تبدأ الحياة حين لا تنتهي . إنها بالتأكيد بذرة من فكر قديم لا تاريخ له . نبتت صدفة في نفسه فجاءت ثمرتها متأخرة هكذا .

كانت مويجات النهر تترجرج بعذوبة ، وتعكس له بين الفينة والأخرى ، أضواءً متقلبة آتيةً من لا مكان . هل يمكن له أن يعثر على راحته الأبدية بين طياتها ؟

لم يمض وقت طويل ، شهر أو شهران ، منذ أن اختلى به صاحبه ذاك رفيق الأسر العتيد . أخذه على جهة من الصالة الكبيرة المختنقة ، حيث يحشر الأسرى . عرف الجميع أن اسمه كان مدرجاً ضمن وجبة الأسرى العائدين إلى الوطن . كان صاحبه أسيراً عتيقاً مثله ، مشاغباً ، مثيراً للمشاكل ، يتدخل في كل أمر ولا تهمه النتائج التي قد تسفر عنها تدخلاته . همس في أذنه ينصحه بألا يقبل العودة إلى الوطن ، إلى الأهل ، إلى حياته الطبيعية ، وجابهه بكل الأمور العسيرة التي عاناها والتي أحاطت بأسره ، كأنه عاشها معه . أنصت إليه بكل جوارحه . « إنك ميت بشكل رسمي . لقد تآمرت الظروف عليك لتثبيت هذه الحال . بقيتَ متنقلاً بين المستشفيات الإيرانية شهوراً وأنت مغمى عليك . . بين الحياة والموت ، ثم أمضيتَ شهوراً أخرى طويلة في نقاهة لا تنتهي . لا أحد تعرّف على هويتك الحقيقية خلال هذا الوقت ، ففات عليك عدة مرات . أي تسجيل رسمي معترف به وانتقلتَ يا صاحبي إلى العالم الآخر بكل هدوء . ثم إنكِ . . أقسم بالله . . لولا أني عرفتك من قبل ، لما صدقت أنك أنت عبد الكريم الحاج مهدي نفسه ، أستاذ الثقافة المدنية في متوسطة حي البلديات . أنا حزين من أجلك والله ، فهذه ذراعك اليسرى مشلولة وكذا ساقك ، وأنت . . . اسمح لي . . أنت

صرت مقلوب الملامح ؛ جعلتك هذه الشغرة في وجنتك والأخرى في صدغك ، مندلق الشفة ، مفغور الفم وأسنانك السوداء بارزة تحت أنفك المكسور . أما ترى ، قل لي أما ترى ؟ أليس من الأفضل لي ولك ، أن تدعني أعود بدلك لأستفسر عن أهلك ومن بقي منهم ، وعن موقفك وعما ينتظرك هناك في الوطن ، ثم أكتب إليك بعد ذلك فالرسائل هذه الأيام منتظمة الوصول ؛ كما أن وجبة الأسرى العائدين القادمة لن تتأخر كثيراً كما يقال . دعني إذن بموافقتك ، أدرج اسمي بدل اسمك وليباركك الله منذ هذه اللحظة ، وسيأتيك الدور قريباً دون شك فلا تقلق ولا هم يحزنون » .

عنَّ له لحظة ، فترك الشجرة الجرداء وتلك الفكرة الجديدة التي انبثقت في ذهنه ، تركهما وراءه وتقدم بحذر ينزل الأرض المنحدرة نحو الشاطئ . أحب أن يجلس بحذاء الجرف الرملي ، يتسمع إلى هسيس الأمواج اللينة . تبدل عليه الهواء قليلاً حين جاور المياه وأحاطته الظلمة . يظنون أن الحقائق هي الحقائق ؛ يتوجب على البشر أن يتقبلوها في كل الظروف . لم يفكروا في أية درجة تكون فيه هذه الحقائق اللعينة ، أو ما يسمونها هكذا ، بشعة قاسية مخيفة تمزق القلب .

صدمته كلمات صاحبه بشدة وأصابه بسببها خرس . شعر كأنه يختنق بأنفاسه . ثم تملكته نوبة هياج لا إرادي هو أشبه بجنون مؤقت ، فهجم عليه وأمسك به قاصداً الاعتداء عليه بالضرب . تدخل الأسرى القريبون منهما وفرقوا بينهما . أراد أن يظنه خائناً ، منافقاً ، يروم العودة إلى الوطن على حسابه ، لكنه افتقد الإيمان بهذا الرأي . كان صاحبه ، في الواقع ، أميناً على طريقته الخاصة ، ومخلصاً ؛ جاءه بعد أيام يقبّله ويعتذر إليه ويداري عواطفه ؛ ثم أعطاه عنوان صديق له في حي « العامل » يدعى حمزة ، يملك مقهى وقد يتمكن من مساعدته إذا ضاقتْ به سبل العيش واحتاج إلى معونة .

اعتادت عيناه على الظلام الشفيف من حوله ، فلمح على جهة قريبة من الشاطئ ، دكةً حجرية فسعى إليها . ألقى بنظرة سريعة على لفافته تحت الشجرة الجرداء ، ثم اتخذ له مجلساً على الدكة . كانت عظام جسده كلها مرضوضة ، مثل روحه ؛ لكن الحياة تبدأ ، مع ذلك ، حين لا تنتهي . ما كان ، قبل اليوم ، سيجد معنىً لقولٍ مثل هذا ؛ فلا بداية للحياة محددة ، نعرفها عادة وعن يقين ، كما لا نهاية لها يمكن للإنسان استشرافها إن أراد . إلا أنه الآن ، الآن فقط ، يتهجس معرفة ما يمكن أن تعني . فمع اندفاعه وسط جمع الرفاق من الأسرى العائدين ، وهم يخرجون بصخب من الحافلة الكبيرة المحتشدة ، ومع الضوضاء المتفجرة من حوله وصرخات الفرح وهتافات الأهل والمستقبلين ، تملكته رغبة عنيفة وغريبة بالبكاء . تلك كانت بداية المعرفة المريرة . لم يهزه أو يصدمه ألا يجد أحداً في انتظاره يستقبله ، فقد أعلمه قلبه بذلك من قبل ؛ ولكنها هذه الوجوه والسماء الحائلة والتراب والروائح المعطوبة والأرجاء والثياب والأصوات والهتافات . كلها ، كلها ؛ تضافرت على تمزيق نفسه ؛ فسار ، بمفرده ، مسرعاً بين الجموع المتراصة ، والدموع تسيل سيلاناً على خديه وتصل فمه وتشتبك في ثنايا لحيته . تلك كانت عصارة المرارات التي تقادمت في أعماقه طوال السنوات الست عشرة التي قضاها في الأسر هناك . نفثها مرة واحدة وعلى حين غرة ، وانتقل بعد ذلك إلى مستوى عاطفي آخر . عثر على غصن يابس مرميٍّ على الأرض قربه ، فتناوله وأخذ يقطع ، على مهل ، بعض الأوراق الصفراء الملتصقة به . كان يبحث ، إذن ، حين عودته عن بداية أخرى للحياة ، بداية ما ؛ ولعله كان يبحث عن الخيط الضائع لبداية حياته الأولى . أهوى بالغصن على الأرض الرطبة عدة مرات . طفولة بائسة لا لون لها ، يملؤها الحرمان والأحلام المجهضة والدراسة المتعثرة ، ثم التخرج آخر الأمر والتراكض المضني وراء الوظيفة ؛ ثم الحصول عليها بشق الأنفس . وبعد ذلك ، كالقدر

المحتوم ، طوّقه الزواج والإنجاب ، ووجد نفسه ، دون علمه ، يحمل على كتفيه المسؤولية الثقيلة المريبة . . المسؤولية العائلية . أكانت تلك هي البداية ؟ ومتى يمكن أن تكون قد بدأتْ ؟

من لا زمان معلوم بالتأكيد ، ولكنه . . ها هو في بيته الصغير المؤجر في حي «البلديات» الشعبي ، يعيش هذه البداية مع زوجته وديعة وابنته رواء ، وأهله من حوله . . والداه وأخوه صادق ودكانهم الذي يتعيشون منه ؛ يحيطهم بصورة لا مرئية ، الاطمئنان والفراغ البليد واللا شيء الذي سيقبل حتماً . كيف يمكن ، منطقياً ، لبداية تافهة مغلقة مثل هذه أن تتدخل لتحرّك بإرادتها مسيرة الأمور الكونية ، بحيث تنفجر قنبلة معادية بجانبه ، حالما يضع قدمه خارج الخندق ليشترك في الهجوم العام ؟

انتبه إلى ذراعه السليمة تعاود ضرب التراب أمامه بالغصن اليابس ؛ مرةً ومرةً ومرةً ، والارتياح النفسي يتصاعد مع الضربات بانتظام . ولو تواصلت تلك البداية مع منطقها فقضى نحبه واستقر تحت التراب ، من حيث جاء ، لما وجد نفسه الآن ، أمام النهر والليل والحيرة والاضطراب والحسرات والباب الموصد بإحكام . كانت الشهور الطويلة التي قضاها في المستشفيات الإيرانية غائباً عن الوعي ، يعاني باستمرار آلاماً أهون منها الموت ، هي البداية الأخرى اللامعقولة لحياته ؛ فبعد نيّف وعام من سقوطه وعَبر المهانات المتكررة والتعاسة وسوء الحال والمعاملة والانكسارات النفسية ، استقرت به إرادة الحياة البهيمية على ميزان قلق من الوجود الإنساني ، لم يرَ ، في أعماقه السرية ، إلا أن يرحب به . كان انتصاراً كسيحاً ولا جدوى منه للجسد ؛ غير أنه كان الإنجاز الأهم الذي قدر عليه طوال سنوات أسره . ومن خلال التحقيقات المتعددة ، المختلفة المستويات ، التي خضع لها خلال أعوام ، تبين له أن ظروف الزمان محت ماضيه وشخصه ومستقبله ؛ وأنه صار كتلة بشرية مشوهة ، تعيش ضياعها في هذه الدنيا . ولم يدرِ في الحق ، الآن

وآنذاك ، لماذا رفض عرض صاحبه ذاك الأسير العتيد ، ولِمَ لم يصدق أن هنالك ، في هذه الأيام العصيبة ، موتاً في الحياة وحياةً أفضل منها الموت . ألعله خشي ، خفية عن ذاته ، أن تنغلق عليه أبواب النهاية في تلك الأصقاع ؟ أم أنها الأشواق المحرقة لرؤية عائلته الصغيرة ، بقيت تتردد في حناياه رغم أنفه وتدفع به نحوهم ؟

وهكذا تسلل من بين جمع الأسرى والمستقبلين الصاخب وابتعد مجهولاً من الحاضرين ، لا يلتفت إليه أحد . ثم ضاع في مدينته المتنكرة التي لم يعد يعرف وجهها ، مرتاعاً مما قد يلقى ؛ وكان على حق أي حق .

وصل حيّه الشعبي عصراً بعد لأي ، وهو يحمل في رأسه صوراً عديدة لبيته وبيت أبيه ودكانهم المتواضع . لم يعرف أحداً ولا عرفه أحد . غيَّب الموتُ الجيرانَ وجيران الجيران ولم يبق في دائرة الحي الضيقة غير دار أبيه ودكانه . وجد في الدكان كهلاً فسأله عن عائلته ثم أخبره قبل أن يسمع منه جواباً باسمه ؛ وبأنه كان في الأسر طوال الأعوام الستة عشر الأخيرة . تلبث الكهل لحظات يتأمل ويحدُّ النظر إلى وجهه وإلى ذراعه الميتة وربطته وملابسه . ثم نادى صبياً من كوة في الدكان تتصل بالبيت وطلب منه أن يستدعي شخصاً سمّاه له ؛ والتفت إليه :

– أخي ، أنا استأجرت الدار والدكان من مالكهما الحاج رزوقي الذي قد يعرف شيئاً عن أسرتك . لقد أرسلتُ في طلبه كما رأيت .

كانت تلك حقيقة أولى خفق لها قلبه ؛ فالحاج رزوقي كان كما يتذكر ، صديقاً لوالده حقاً . أما الحقائق الأخرى فأقبلت مع قدوم الحاج رزوقي . رآه شيخاً جاوز السبعين ، ولكنه ما يزال مالكاً لصحته وقواه الجسدية . بدا الشك على الحاج بوضوح وهو يحييه ، ثم اعتذر منه بأن المرحوم عبد الكريم الذي عرفه قبل أن يستشهد لم يكن بهذا الشكل ولا بهذه الحال ، ثم صمت . كانت عيناه واسعتين ملينتين بالقذى . أبرز

له الورقة الرسمية التي زودوه بها ، فألقى عليها نظرة عابرة وأعادها إليه . لم يدرِ كيف يدافع عن هويته إزاء شكوك الشيخ الراسخة . لم يستعد لهذا الأمر . أخذ ، بصورة آلية ، يحكي له عن والديه وزوجته وابنته وأخيه صادق ؛ وعمن عرف من الأصدقاء وعن تلاميذه ؛ فبدا على الشيخ كأنه يحاكم نفسه وشكوكه . ثم إنه ، بعد دقائق ، أمسكه من ذراعه وجرّه إلى خارج الدكان منتحياً به زاوية على جانب الطريق . قال له :

– ما أزال يا ولدي غير مطمئن لما تقول ؛ فعبد الكريم الحاج مهدي يرحمه الله اعتبر مستشهداً منذ أكثر من خمس عشرة سنة ؛ وقد عملوا له الفاتحة في دار والده حسب الأصول ووضعوا لافتة كبيرة على واجهة الدكان . أنا حضرتُ ، يشهد الله ، في أيام الفاتحة الثلاثة وعزيت الوالد والشقيق ، فأنا صديق قديم لهما . بعد ذلك ، فإن الأمور تبدلت يا ولدي وتقلبتْ أحوال الدنيا كثيراً . وها أنتذا ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، تأتي الآن وتسأل وتريد أجوبة ؛ وأنا لا أتذكر كل شيء ، ثم إن بعض الأمور لا تحكى هذه الأيام ؛ فعليك يا ولدي بالصبر والإيمان .

ثم أراد ذلك الشيخ المستلغز أن ينصرف فتشبث به . تبادلا النظرات بصمت . كان يتوسل في قرارة نفسه ، أن يرحمه هذا الذي يعرف كل شيء . ولسبب غامض – لعله اليأس المطلق الذي ارتسم على تلك الملامح المشوهة ؛ والذي لا يعانيه إلا الهالكون حقاً – عاد الشيخ يتكلم :

– ليكن الله وكيلي ، فأنا لا أعرفك ولا أقصد سوءاً بأحد .

. . . لقد انتقلت عائلة المرحوم عبد الكريم ، زوجته وابنته الصغيرة ، إلى دار والده الحاج مهدي بعد ورود الإشعار الرسمي بفقدانه ولم تمضِ إلا سنوات حتى توفيت والدته . كانوا يسكنون في دارهم هذه ؛ وفيها تزوج صادق من أرملة أخيه عبد الكريم بعد انقضاء أعوام على وفاته ؛ وكان الأب قد شاخ وضعف كثيراً فاستلم ابنه صادق هذا

الدكان وأخذ يوسع من أعماله . ثم توفي الأب في السنة التالية لانتهاء الحرب . . .

– لقد عرض عليَّ الأستاذ صادق شراء الدار والدكان بثمن معقول ، فالرجل زاد ماله وصار يطمح إلى حياة أخرى وإلى دخول السوق ، فرأى أن يبيع الدار والدكان فاشتريتهما منه . أين هم الآن ؟ الأستاذ صادق لا يتذكرنا إلا نادراً . لقد فار تنوره بعد الحصار وتراكمت الأموال لديه بغير حساب كما يقولون ؛ وهو لا يأتي إلى الحي إلا مرة أو مرتين في السنة ، وقد لا يأتي . قيل لي إنه اشترى قصراً في المنصور ؛ أم لعلهم قالوا في الجادرية ؛ لستُ متأكداً . ولكن انتظر ، لعل «سالم» هذا الذي يشتغل في الدكان يعرف أو يدلك على من يعرف عنوانه .

استمع إلى خطاب النعي ذاك بقلب خافق وأطراف باردة مرتجفة ؛ ولم يقاطعه ؛ وخنق تلك النزعات اللجوج التي تبحث عن التصديق وعن التفاصيل . كان الحاج رزوقي يحكي له حكاية ما ، يظنها لا تخصه ؛ وكان هو أيضاً يريدها ألا تخصه .

كانت مياه النهر مستمرة على تهامسها المبهم ، والمويجات السوداء تتقلب على الضفة بخفة . رمى ببصره نحو جهة المدينة ، فبدت له أضواء الجسر تتقوس عالياً في الأفق . عاد يلتفت إلى الجهة الأخرى . أكداس وأكداس من الظلمات . رمى الغصن اليابس من يده وقام من جلسته على الدكة ؛ فألقى نظرة عابرة على لفافته المركونة تحت الشجرة . لم تخطر له فكرته إلا هذه الساعة . . تحت هذه الشجرة الجرداء . أن تبدأ الحياة فعليها ألا تنتهي . ولكن . . متى لم تتلامح نهاية الحياة منذ بدايتها ؟ بيد أنها شروط هذه الحياة الإنسانية إن أردنا أن نعيشها بشكل طبيعي ؛ فالحياة العادية يجب أن تخلو من الموت . . من الانتهاء ؛ لأن الإنسان العادي ، لا يتحمل النهايات المحتومة ؛ تنقلب به الحياة إن واجه نهاية مطلقة أمامه ، مهما بَعُد بها الزمان . أهي الطبيعة البشرية أم هي الطبيعة بطبيعتها ؟ والآن . . .

وقف أمام المنزل الكبير الذي دلّوه عليه متردداً . كان بمواجهة كل بهرجة الثراء اللا محدود ، الثراء البليد الحيواني . ثم تغلب ، أخيراً ، على شعور الضآلة الذاتية وتقدم من الباب الخارجي الضخم . كانت الأضواء في كل مكان ، وسور الحديقة العالي تكسوه الأعشاب المتسلقة . سأله خادم بانزعاج عما يريد فأجابه بسؤال :

– أهذه هي دار الأستاذ صادق ؟

فتحوا الباب وأدخلوه دون اكتراث ، طالبين منه أن ينتظر هناك في زاوية قريبة من باحة تتصل بالمطبخ . كانوا في خضم حركة لا تنقطع ، وعديد السيارات متوقفة في الممر القائم بين الباب الخارجي والمنزل . ارتكى على الحائط ووضع لفافته على الأرض وانتظر . لبث ينتظر وينتظر . كان شيئاً منسياً ، والحركة متصلة من حوله ، وهو يفكر فيما يتوجب عليه أن يعمل . كلم خادماً أو خادمين أثناء مرورهما قربه ، فلم يلتفت إليه أحد منهما . كان الباب الداخلي للبيت على جهة منه إلى اليمين ، حيث انتبه إلى كثرة الأضواء . لعلهم يتهيأون لاستقبال زوار أو يستعدون للمغادرة لحضور عرس أو حفل . سار باضطراب عدة خطوات فانكشفت له الساحة المواجهة للباب الداخلي وبانت له فسحة الحديقة أمامها . لم ينتبه إليه أحد وهو يقف لصق الجدار قريباً من المدخل . ثم ، فجأة ، انفتح الباب على سعته وبرز منه أخوه صادق يسير متعجلاً . هكذا تمت الأمور . هتف وهو يتجه نحوه :

– صادق ، أخي صادق . أنا عبد الكريم ، أخوك عبد الكريم . أنا لم أمت وما زلتُ حياً . أنقذني يا أخي .

توقف صادق في مكانه . كان بطيناً ، متأنقاً ، أشيب ، ذا رائحة نفاذة . صرخ رافعاً ذراعيه :

– من هذا ؟ كيف دخل علينا ؟ ولك رجب . يا رجب . . .

برز بينهما حالاً شخص طويل ضخم ، فاستمر البطين يصرخ :

– أخرج هذا المجنون . سيقتلني . أخرجه أقول لك .

لم يسنح له الوقت كي ينبس بكلمة أخرى ، فقد احتواه ذلك الرجب بشكل غريب ورفعه ثم حمله ، كعصفور ميت ، إلى الخارج ؛ ولم يتركه إلا بعد عشرين متراً . طوّح به على أرض الشارع الصلدة ، فتدحرج هو ولفافته بعيداً . مكث راقداً بسكون ، يخزه الألم في أنحاء مختلفة من جسمه . كان مرتبك المشاعر ؛ هزّه أن يُعامل هكذا ممن كانوا أهله وذويه ؛ ولم يخطر له قط أن تكون البداية بهذه القسوة ، وأن ينكروه بهذه الطريقة الفظة .

تحامل على نفسه وسحب ذراعه المشلولة من تحته ثم قام مترنحاً . ما زالت الأضواء ، في القصر وحواليه ، تزيد من بهرجته وانغماره في جو الأحلام ، وأشجار الحديقة العالية تهز رؤوسها ببطء . سار مترنحاً مرة أخرى نحو المنزل الكبير ، يملكه خوف من أن يُعاد العقاب عليه . انزوى بين النباتات الكثيفة على جانب الباب الحديدي الضخم ، وعمل على إيجاد فسحة بينها يطل منها على ما يجري في الداخل . لم يكن حائراً قدر ما كان يائساً من جدوى أي عمل . سمعهم ، من مكانه ذاك ، يتنادون فيما بينهم .

لم يفقه معنى لكل هذه الحركة والضجيج والذهاب والإياب ؛ وخيل إليه ، مرةً ، أنه يرى أخاه ، ومرة يلمح امرأة تشبه زوجته وديعة وأطفالاً متعددين ، يبدون له من شبابيك المنزل العريضة . لم يعاود أخوه صادق الخروج . كم بدا متغيراً! ألم يعرفه حقاً ؟ أم لم يرد أن يعرفه ؟ ليس من المسموح له أو لغيره أن يعرفه! ولكن . . ولكن ؛ أمن المعقول أن يترك نفسه يُسحق هكذا وأن يعترف لهم بحقهم في أن يغلقوا عليه حياته ؟ مثل حشرة . مثل ذبابة . وماذا سيخسر أكثر ، لو وقف أمامهم ، مرة أخرى ، يصرخ بهويته وبحقيقته وبإدانته لهم ؟ ماذا سيخسر ؟

تحرك تاركاً مكمنه وسعى إلى المدخل الكبير فضغط على زر الجرس بإصرار وهو يضرب بساقه حديد الباب ضربات قوية . لحظات ، ريثما ينتبهون ، ثم أخذ يصرخ منادياً بأعلى صوته :

– اسمع يا صادق . أنا أخوك عبد الكريم ، وأنا حي لم أمت ؛ يشهد الله على ذلك . أنا أمامكم الآن . تعالوا انظروا إليَّ . لدي أوراق رسمية . وأنتِ يا وديعة . اخرجي إليَّ وانظري . أنا زوجك أمام الله والناس . لا تنكروني يا مسلمون . خافوا الله .

تظاهر له كأن مصابيح أخرى قوية بدأت تضاء أثناء صراخه في أنحاء المنزل ، ثم رأى حشداً من الناس يتجمعون في الممر حيث تقبع السيارات ، ميَّز في مقدمتهم ذلك البطين المتنفج أخاه ، ومن حوله بعض الخدم وهم يتقدمون نحوه باضطراب . تحفز وجهد كي ينتصب مستقيماً وهو يواجههم ، يفتحون الباب الكبير ويقفون قبالته تحت الأضواء الباهرة .

أذهله ، لحظة ، وعلى حين غرة ، ألا يجد أي شبه لأخيه صادق بهذا البطين المتأنق الغاضب . سمعه يتكلم بخشونة :

– أنت ، ماذا تريد ؟ ماذا تقصد من تصرفك هذا ؟ من أنت على كل حال ؟ قل لنا . ولماذا تصرخ هكذا وتجمع علينا الجيران ؟

وأغرقه الشك والارتباك والخجل :

– أنا أخوك يا صادق ؛ أخوك عبد الكريم الحاج مهدي . ألا تتذكرني ؟ قضيتُ في الأسر ستة عشر عاماً ، لكني لم أمت . نشروا أني مفقود . ألستَ أخي صادق الحاج مهدي ؟ هل تنكرني الآن ؟

حينذاك تعالت همهمات من الجمع فقطعت عليه كلامه .

تكلم البطين بلهجة مهادنة :

– ولكنك غلطان يا أخي ، غلطان . نحن لا نعرف أحداً باسم صادق الحاج مهدي كما تقول . أنا أسكن هنا منذ سنوات والكل يعرف ذلك ، واسمي هو الحاج صادق الحاج أيوب الهداجي ، وأنا وحيد أبويَّ . من دلك على دارنا يا أخي ؟

تفضل مع ذلك إذا أردت . تفضل بالدخول واسترح ، فكل أسير عراقي هو من أبنائنا وعلى رأسنا . تفضل .

فتملكه الدوار آنذاك ، دوار عنيف لعين . لم يرد أن يغمض عينيه ولا أن يستند على الحائط خلفه إعياءً ؛ ولا أن يتلاشى أمام هذا الحشد الفضولي المتعاطف مع الأسرى ، لكنه لم يستطع . هذه تعب عظيم لا قدرة للبشر على تحمله..

كان غارقاً في الظلام ، على ذلك الشاطئ المنعزل ، يقف مثل شجرته الجرداء تلك ، مراقباً المياه الجارية . وماذا سيحصل إذن حين تتكامل أسباب النهاية غير أن الحياة لم تنته بعد ؟ تتساقط معادلة الحياة الإنسانية بالضرورة وتنحرف بقاياها لتبلغ مستوى الحياة الحيوانية . هذا هو منطق الطبيعة القاسية التي لا تعرف الرأفة بمخلوقاتها .

قادوه إلى داخل الدار الكبيرة وضيّفوه كما يجب ، وأدخلوا اليأس الكامل بلطف إلى نفسه ؛ وكأن البطين أراد له أن يلقي نظرة على نسائه ليطمئن ، فقدمت له إحداهن ، لم يرها من قبل ، قدح الشاي وكانت هي زوجة البطين ، وتعرف على إحدى الآنسات وكانت هي ابنته . غير أن أحداً لم ينصحه بالعودة للسؤال عمن دلّه على الدار . . وكيف أخطأ بالاسم هكذا ؛ إلا أنه ، بلجاجة ، عاد يتحمل مشاق النقل والمسافات الطويلة وحاصر ذلك الشخص في الدكان مستوضحاً منه ويده على قلبه . نظر إليه بعينين جامدتين ، لا يلوح فيهما أي إدراك لحاله وأكد له ، بكلمات متقطعة ، أن الدار هي دار أخيه صادق ولا توجد دار أخرى غيرها يعرفها ، وأن الجماعة ، سامحهم الله ، أرادوا أن يخدعوه .

انحنى وأمسك بالغصن اليابس ثم اقترب بتردد من حافة الماء . جذبته التماعات الأضواء المتلاعبة بخفة على سطحه . ما لم يقله كل أولئك الذين توجهوا بالحديث إليه ، قاله له صدى نبع من أعماقه السوداء الخفية ؛ تلك الأعماق التي لا مجال فيها للنفاق أو الخوف أو التراجع . ما عادت لك حياة هنا . . بين أولئك الذين كانوا أهلك فيما غبر . انقلبت الصفحة معهم ؛ وكل ما يُقال خلاف ذلك هذر وأوهام ؛

فحياة البشر تبدأ وتستمر حين لا تنتهي ؛ ولقد تعاون العالم كله ، من أجل أن يحوك ، بإتقان شديد ، أسباب نهايته . فاذا ما صمم ، الآن إذن ، أن يقصد حي «العامل» للسؤال عن «حمزة» صاحب المقهى ذاك ، صديق الأسير العتيد ، لعله يدبر له عملاً ؛ أو إذا ما قرر أن يتماهى مع هذه المياه المتلاينة أمامه فيعانقها وتعانقه وتمنحه السلام الأبدي وتنتهي الأمور كلها ، فإن فكرته تلك عن الحياة ، التي لمعت في ذهنه جوار الشجرة الجرداء ، تبدو مالكة لأسس متينة من الحقيقة ؛ ففي الواقع ، ماذا يتبقى لك إذا تكاملت حولك أسباب النهاية ، غير أن تبدأ الحياة من جديد كي لا تنتهي ؟

تونس – شباط ٢٠٠١

وانغمرتُ بصمتي
(نص قصصي)

لأن الأمور تغيّرتْ بعد ذلك ، أمكنني أن أسرد كل هذا .

هي لم تكن إلا لحظات ؛ لم تزد على أن تكون لحظات ، هنيهات ضائعة في عمر الزمن الأبدي . كانت تتحدث عن شيء ما ، وهي تمسك بمقود السيارة ، تنطلق بها بسرعة كبيرة لا داعي لها ، ووجهها مشرقٌ كالعادة وهي تومىء وتهز رأسها فيهتز شعرها الجزل الأشقر . لم تكن غاضبة ولا ثائرة الأعصاب ، بل حانقة على أمور لا تعرفها بالضبط ، وكنتُ بجانبها أتشمم بمتعة رائحتها وعطرها . هي ، في الحق ، أشياء لا توصف إلا حين تقارب الانتهاء أو حين تتداخل مع الأبدية . أرادتْ مني ، هذا الصباح الذي جمّلته بوجودها ، أن نلتقي ، أن نلتصق ببعضنا وأن نتبادل ما لا يُسمى من العواطف وترهات الحياة الأخرى .

حين رنَّ جرس هاتفي الشخصي ، كنتُ أتملى الأفق المتسع المليء بالشمس ، تاركاً أوراق العمل على مكتبي تنتظر ، فلم تمل نفسي إلى رفع السماعة . لم أكن منغمساً في التفكير ؛ وكنتُ بالأحرى غارقاً في ديمومة ذهنية لا حدود لها ، منحتني استرخاءً وما يشبه السعادة . فلما زاد إلحاح من يطلبني التفتُ إلى السماعة أرفعها . ولأني لم أعترض واندفعتُ معها بسكون ، جالساً بجانبها في سيارتها الخاصة ، تتراكض

بي كأنها تحملني على أجنحتها ، فقد فاض منها بركان من الأحاسيس التي لا جدوى منها ، فانطلقتْ ، إذن ، تغالب نفسها وتطارد الريح . أكان ذلك لأني قلتُ لها إني سأكمل السادسة والخمسين من عمري ، فذكّرتها بأمر مبهم تحب أن تخفيه ؟

سمعتُ صرير الباب يُفتح ووقع أقدام تضرب أرضية الغرفة . كانا اثنين ، عرفتهما قبل أن يتبادلا الكلام .

- هل حصل شيء جديد ؟ تقدم . . تأخر . . أي شيء ؟
- كلا يا سيدتي . لا شيء .
- وهل مَرَّ الطبيب لفحصه ؟
- كالعادة .
- الدكتور حامد ؟
- هو بنفسه .
- ماذا قال ؟
- لا شيء . لم يقل شيئاً . تعرفين سيدتي . .
- لا أعرف شيئاً . أهو في غرفته الآن ؟
- أعتقد . هل أطلبه ؟
- كلا . سأذهب أنا إليه . لابد لي أن أفهم شيئاً عن هذه الكارثة وإلى متى ستطول .

وعادت الأقدام تطرق أرضية الغرفة مرة أخرى . لم تأتِ يوماً إلا وأرادت أن تقابل هذا الطبيب . ولأن معرفة الهوية من الأصوات صارت من الأمور العادية ، فقد أردتُ ، منذ أكثر من شهر ، أن أتعرف عليهم من وقع أقدامهم . . من الموسيقى التي تعزفها أحذيتهم على أرض الغرفة . هنالك تلك الطَرقاتُ الواخزة لحذاء نسائي مدبب . . مسألة مفروغ منها . . شريفة زوجتي . لم أخطأ مرة . أما الحذاء الجلدي الذي يتمطى في تقدمه على الأرض فهو لذلك الدريع المنافق إحسان . . الذي اختارته ابنتي شذى زوجاً لها . حذاء متخاذل ، جشع ، لا تخرج منه إلا الأصوات الكريهة . حذاء ابنتي شذى في ملامسته للأرض يشبهها ؛

خائفاً من لا شيء ، مستسلماً لكل شيء . عكس ذلك حذاء ابني عبد القادر . تخبطات عشوائية فارغة . أما حين أسمع حفيفاً غامضاً ومتقطعاً فهي رواء زوجته . . أم حفيدي عبد الرحمن .

كل تلك ، قضايا تافهة ، لا يحسب لها حساب ، كانت تؤنسني في ظلمتي ، حين أشعر بوحشة مطلقة .

عدتُ أسألها لماذا أقلقها وأحزنها أن تسمع مني أني أنهيتُ هذا العدد من السنين . كان ذلك قبل لحظة ، قبل لحظة انفتاح باب النهاية علينا . لم تلتفت إليَّ ، وبدا عليها كأنها تركّز الانتباه على الطريق أمامها . ثم رفعتْ يدها فعدّلتْ من وضع نظارتها الزجاجية . كانت بهذه النظارات ذات الإطار الذهبي ، حين التقيتها في تلك الحفلة العائلية . رأيتها وكأني أراها للمرة الأولى . هي ابنة إحدى قريبات زوجتي . لم تتغير ولكنها صارت فتاة أخرى بشكل من الأشكال . كنا سمعنا ، منذ سنوات ، أنها تزوجتْ ثرياً من الجنوب ؛ وقيل في وقته إن تلك اللقطة لا تحدث إلا خلال أجيال . ثم . . لأسباب مجهولة وأخرى معلومة ، وقع الطلاق بينهما قبل حوالي السنتين ، ووجدتْ «أسيل» نفسها مرة أخرى في دار والدتها ، تملك سيارة فخمة وبعض المال ، ولكنها في نظر المجتمع امرأة مطلقة بكل ما تحمل هذه الصفة من مثالب : «أنا أيضاً ، لا أعلم لماذا يزعجني أن تحدثني بمثل هذه الأمور . أنت لستَ غبياً ، أأنت غبي ؟ وأنت تعلم جيداً أني لا أكترث لهذه الإشارات منك ، ألم أثبت لك ذلك ؟»

لم يكن هنالك ، ذلك المساء ، أي سبب وجيه يجعلني أنجذب إليها هكذا . كانت طويلة ، نحيلة ، قصيرة الشعر ، ترتدي سروالاً جينز وبلوزاً ورديا ، وكأنها تريد أن تبدي ، بملابسها وتصرفاتها ، عدم اهتمامها بالجميع . ولأني حدستُ أنها تخفي جرحاً روحياً غائراً ، اقتربتُ منها . كنتُ منجذباً إليها ، إلى هذه الأنثى الجريحة المشعة ؛ ولم تستطع أن تقابل حرارة اندفاعي نحوها ببرود ، فصارتْ تكثر من الابتسام واحمرت وجنتاها أحياناً .

كانت أصوات الداخلين وطرقات أحذيتهم مختلطة بشكل أضاع عليَّ تمييز الهويات . نبر إحسان :

– هذا ببساطة وضع غير معقول يا عمتي أمَّ عبد القادر . غير معقول البتة .

– ندري . ندري . لا تلح .

أجابته ابنتي شذى . تكلمت بعد لحظات زوجتي :

– قابلتُ الدكتور حامد قبل أن تجيئنا ؛ ورأيه هو نفس رأي إحسان . لا يمكن أن نستمر على هذه الحال . مضى شهران واثنا عشر يوماً! هذا كثير .

– كثير على أبي ؟ لا تقولي هذا يا أمي .

هتف زوجها :

– عدنا إلى العواطف . يا سيدتي فكري قليلاً بنفسك وعائلتك ومالك المهدور .

– مالي ؟ هذا كله الذي نصرفه هو مال أبي . . . ماله الحلال .

– ثم ماذا ؟ هل نبعثره على جدث لا حياة فيه ؟ العفو . . أمَّ عبد القادر . . لم أرد أن أتكلم هكذا ، ولكن الظروف وحكايات شذى تجعلني أخرج عن طوري .

بعد قليل من الأحاديث والنظرات ذات الإيقاع الخاص ، أخبرتني « أسيل » الجميلة بأنها لا تملك شيئاً كثيراً رغم المظاهر ، وإنها وأمها تواجهان ، بمفردهما وبصمت ، وضعاً مادياً صعباً ومعقداً ؛ وتطلعتْ إليَّ بكثير من الود والتحدي تسألني : « أنت رئيس المؤسسة الهندسية الكبرى في البلد ، وأنا مهندسة عاطلة عن العمل . . » وصمتت .

– لنأخذ الأمر بتعقل يا جماعة . اسمعي أنت يا شذى وأنتِ يا عمتي أم عبد القادر ، لماذا لا نأخذ الأمر بتعقل ؟ قولي لي . . ألم يخبرنا الأطباء . . كلهم . . بأن لا فائدة منه ؟ لا فائدة منه . . ماذا تعني ؟ تعني أنه سيموت لا محالة . هم الذين يقولون هذا ، لا أنا . إذن . . لماذا كل هذه المصاريف ؟

- الدكتور حامد . .

زوجتي لا تستطيع أن تنسى ذلك الطبيب لفترة طويلة :

- . . يقول يجب أن ننتظر .

- طبعاً . طبعاً ؛ ولكن . . يا عمتي أم عبد القادر ، ألا تفهمين معنى أن ننتظر ؟ دعونا نتعقل قليلاً يا جماعة .

قطعتْ حديثهم ضجة مختلطة أخرى لأصوات وإيقاعات الأحذية ، ثم جاءتني ، كما يجيء المطر للأرض العطشى ، تلك اللمسات الرقيقة من أنامل ناعمة دافئة حنون ، وسمعتُ حفيدي عبد الرحمن يهمس في أذني :

- صباح الخير جدو . . صباح الخير جدو .

ومَرَّ براحته على صدغي وخديَّ وشاربي وحنكي . تلك كانت وسيلته ليلتقي بي وليحدثني .

- دع جدك يرتاح ، رحمن . دعه يرتح .

- كيف هو اليوم ، عمتي ؟ هل زاره الطبيب ؟

وابتعدوا يتكلمون بهمس ، ولبث الصغير يمسك بذراعي اليمنى كأنه يتشبث بي . كنا صديقين متفاهمين ؛ فهذا . . طفل السابعة هذا ، كان يملك من الحساسية والذوق والإدراك ما يتفوق به على الكثيرين من البالغين المتنفجين البلداء . وبشكل غير قابل للتفسير كان يرعى عائلته الصغيرة كأنه مسؤول عنها ؛ ويساعد والديه على تقبل العيش قدر ما تسمح له بذلك حدود الطفولة ؛ وكنتُ أخشى عليه من سوأة البشر وغلاظتهم . ومع إمساكه المستديم بذراعي ، أثناء ما كانوا على جانب منشغلين بهذرهم ، شعرتُ بدفء غريب يسري في عظامي كما لو سخنت دمائي وتسارع جريانها . كانت القبضة الصغيرة الناعمة تشدني إلى الحياة ، وتتوسل بي ألا أذهب بعيداً وأن أبقى ؛ وكنت ، ضمن عجز جسدي المطلق ، أتألم وأتصابر . تلك المحنة التي كنت فيها كانت تزداد في تعذيبها لي حين يتبدى أمل ضئيل من غبش الأفق البعيد .

هي أيضاً ، لم تكن تطيق التفكير فيما يمكن أن تقودنا إليه هذه

العاطفة الباعثة على سعادة كبرى لا تطاق أحياناً . ولم أستطع وقتذاك ، حين تقابلنا في ذلك الحفل العائلي وحين كنت في خضم مسار طويل من الرتابة العائلية والوظيفية والحزبية ، أن أتظاهر بأني لم أفهم دلالة نظراتها إليّ . جلستْ قريباً مني ، تصغي إلى كلامي ، محمرة الخدين ومضطربة بعض الشيء ؛ وأنا ، المجنونَ بها ، أحدث عينيها وأشرح انجذابي لها دون اكتراث بمن حولنا . كنا حدسنا ، نحن الاثنين ، في تلك اللحظات نفسها ، أننا لن نترك أحدنا يفلت من الآخر . وبسبب أن تعيينها ، بعد ذلك ، بوظيفة هندسية في فرع للمؤسسة بعيد نسبياً عن المقر ، فقد تكاثرت المكالمات التليفونية بيننا يوماً بعد يوم . وظهرت لي جرأتها من خلال هذه الآلة السوداء حين أفضت لي : « أنا أفتعل ضرورات العمل كي استمع إلى صوتك . هل يصح هذا ؟ »

ارتفع صخبهم حولي فجأة وعلت أصوات تتقاطع فيما بينها :

– أتقول هذا حقاً ؟

– لم أقله . لم أقله مطلقاً .

– كيف تجرؤ ؟

– الدكتور حامد لم يستطع أن يقرر .

– اسكتوا ، اسكتوا . دعونا نحسم الموضوع إذن لا أن نناقشه . اطلبوا من الدكتور حامد .

– لا يستطيع . قال لا أستطيع .

كانوا يتكلمون معي عادة بصوت منخفض ؛ فقد كنت أخيفهم دائماً بشكل من الأشكال . ثروتي ومنصبي ونفوذي كانت تحيلهم إلى صراصير أمامي ، وكنت أرى ذلك من الأمور الطبيعية . ولم أتساءل يوماً عن طبيعة هذه الأمور الطبيعية ، وكيف أمكن لي أن أتصرف على هواي دون اكتراث لأي واحد منهم . حين جاءني ، مرة ، ابني عبد القادر ينوه لي بأمور قال إن الألسن تلوكها بالخفاء ، سألته ببرود . . وأنت المحامي ، دارس القانون ، هل سألت نفسك عما إذا كنتَ تملك الحق في التحدث هكذا ؟

أبعد عبد الرحمن بلطف كفه عن ذراعي وهمس :

- مع السلامة جدو . تصبح على خير .

كانت أنفاسه في أذني مثل نسمات ربيعية دافئة . أردتُ ، بلهفة حرى ، أن أجيبه ولو بكلمة واحدة . . . واحدة . عبثاً . . عبثاً .

انصرفوا وبدأ ليلي وانحصار روحي . ماذا تبقى لي ؟ وكيف أمكن لهذا الجزء من ذهني أن يعاود بإصرار كل تلك الأحداث والصور والألوان ؟ أهو الطريق الوحيد المتبقي ، للقبض على الخيط الأخير الموصل مع الحياة ؟

قلت لها يوماً : « أنتِ تأتين إلى غرفتي أكثر من اللازم ، والأشغال لا تستدعي ذلك دائماً » . كنت أبتسم لها وهي تقف حاملة أوراقها أمام مكتبي . كانت تتزَين بمقدار وتبدّل ثيابها كل يوم ، وكنتُ مسحوراً بها ولا أطيق أن أخفي هذا السحر . بدا عليها التردد في وقفتها كأنها لم تصدق ما قلته . ثم همستْ وهي تشدّ الأوراق إلى صدرها : « لا تمنعني . أرجوك » كم شاقني ضعفها ولهفتها واضطرابها وما خفي من كلماتها! تلك كانت البداية ، ربما ، لإزاحة العوائق المفتعلة . تراخت في المجيء يومين أو ثلاثة ، فطلبتُ من سكرتيرتي أن تستدعيها . كانت ، ذلك الضحى من شباط ، ترتدي جينزها الذي رأيتها فيه قبل عدة أشهر ، وقد بدت فيه امرأة طفولية مشتهاة . كان النهار مشرقاً مشمساً بهيجاً ، وكنا نتبادل المزاح والمداعبات والتلميحات ، وكانت حياتي بمجملها مشحونة بهذا العنصر العاطفي اللامتوقع . سرى فيَّ ، جسداً وروحاً ، حماس حياتي لم أجربه في أيام الشباب المتوهجة . جاءت ، ذلك الضحى ، فوقفتْ فوق رأسي ونشرت أوراقاً وخرائط على المكتب أمامي ثم انحنت تشير بأناملها إلى بعض الخطوط على الخريطة وإلى فقرات معينة في الأوراق . كانت أصابعها بضة رقيقة وصبغة الأظافر تزيدها شفافية ؛ وكانت رائحتها تغلفني وتداعب عواطفي . وضعتُ كفي على يدها ، وكانت خصلة أو خصلتان من شعرها الأشقر تمس أعلى جبهتي ، ثم رفعتُ وجهي إليها . كانت

متوردة الخدين وعيناها الزرقاوان يكسوهما غبش خفيف . هنيهات من الانغمار في عالم سحري لا اسم له ؛ ثم انحنتْ بهدوء فوضعت فمها على فمي ، وكانت شفتاها حارتين ليّنتين .

صرّ باب الغرفة بشكل مزعج وعرفتُ في القادم الممرضة الليلية تتقدم نحوي . كان هو وقتَ التنظيف الجسدي . تلك العملية . . حين أحستْ بإبهام أنهم يعملونها لي في أول أيام عودة ما يشبه الأحاسيس إليّ . . كم كانت مرعبة! ثم ما لبثتْ ، مع تغير الممرضات ، أن تحولت إلى عملية عادية يساورني بعدها شعور غامض وغريب بالنظافة يمنحني ارتياحاً كبيراً ؛ وخاصة إذا أمكن أن تتم برفق وحنو ودون كلام . كنَّ يغنين أحياناً أو يفرغن جعبتهن من القيل والقال أو يتابعن شتمي وإهانتي طيلة الوقت . كنَّ ، مع جسدي الخامد المستسلم ، يشعرن بحرية مطلقة . مرةً ، كانت إحداهن ، صباحاً ، تبدل ما لا أعرفه من وسائل التغذية ، فتغرز الإبر في جسمي بحضور حفيدي ، فلم يطق صبراً وهتف بها :

– لا . لا . خالة سستر ، برفق ، برفق . هذا يؤلم جدي .

ومع كل الظلمات التي لا نهاية لها والجاثمة عليَّ ، تحولتْ حياتي الماضية إلى نجمة مضيئة في أقصى طرف من الأفق المدلهم . كانت بي حاجة أساسية وملحّة للاسترجاع ؛ معتمداً بأني إذ أصف نفسي آنذاك وما حدث لي وكيف كنت أشعر به وبمن حولي ، أكون قد كسبتُ إدراكاً حقيقياً عن نفسي ومَنْ أنا وما أكون . أأستطيع ، بعد كل حساب ، أن أقول بأني كنت مستهتراً أم غير مكترث بأحد أم مغروراً أم عديم الأخلاق ؟ أو ، على العكس ، كنت ملتزماً وخائفاً وشقياً ؟ ما أصعب أن نحكم على حياتنا بحياد ، ونحن على حافة الموت! فأنتَ ، متدلياً على حدود الحد الأخير ، ترجو وتستعطف وتتوسل وتبكي راكعاً على ركبتيك من أجل ثانية واحدة زائدة تبقى فيها على قيد الحياة! كنتُ ، إذن ، متشبثاً دون أن أدري كيف ، بهذه الدفقة الضئيلة المتبقية في ذهني والتي تصلني ، عن طريق أذني حسب ، بالحياة . ولعلهم ،

الأهل والأطباء . لا يعرفون بها . يظنونني ميتاً ولكن ليس بصورة مشروعة ؛ وكان هذا مأزقاً للكثيرين منهم . لم نتوانَ ، هي وأنا ، عن اغتراف كل الملذات الممكنة التي تكمن في جسدينا المحترقين بعواطف مشبوبة متبادلة . أخذتها معي ، في وفد ، إلى لندن . مكثنا أسبوعاً هناك لم نفترق فيه لحظة واحدة ، وتفادينا الفضيحة بصعوبة . قالت لي إن زوجها السابق لا علاقة وطيدة له بالبشر وبالأحرى بجنس الرجال ، ولم ترد أن تدخل في التفاصيل : «تبدو أنت كنمط آخر من البشر ؛ ما هذا ؟ أيمكن أن نقبل من الطبيعة مثل هذه الفوارق اللامعقولة في التدرج البشري ؟» سألتها مداعباً : «أتريدين يا جميلتي أن تثيري غروري ؟» ذهلتْ ، لحظات ، عن نفسها وجمدتْ على حالها تلك وقد أغرق الحزن تقاطيعها : «كنتُ مدركةً تماماً ما يحدث لي . لا تعلم أية قذارات ينحط إليها بعض الرجال في علاقاتهم بزوجاتهم . اعفني من إيراد أمثلة ، فأنا ، متأخرةً لسوء الحظ ، اكتشفتُ الحب فيك ، وأنا أحبك بسرور وأزداد حباً لك يوماً بعد يوم» . وبكلماتها هذه ، أردتُ أن أزهو وأطير زهواً ، سوى أن ملامحها المشدودة ونبرة صوتها المتوترة نقلتْ لي كم عانت هذه الفتاة ولما تزل . فانكفأتُ أعيش معها سعادة أخرى .

لم يتجرأ أحد منهم على مصارحتي بما يسمع ويظن ويرى . كانوا يخشون غضبي وقسوتي ، لأني كنت الأقوى بينهم ، وكنتُ سعيداً بذلك ، إذ لم يخطر لي يوماً بأني سأقع هكذا بين مخالبهم .

الأمر المثير للعجب في وضعي المرتبك هذا ، أن العقل ، في وقت محدد ، يملك الرفاهية كي ينام ، كي يأخذ قسطاً من الراحة من أجل المقاواة على العيش . وغالباً ما توقظني – هل يمكنني أن أقول هذا ؟ – غالباً ما تفتح نافذة السمع عندي بغير رفق ، تلك الأخت الممرضة المنوطة بعملية تنظيف الجسد الصباحية . ويغمرني عادة ، خلال الدقائق الأولى ، إحساس بالضياع ، إحساس بالدوران المدوخ حول محور فارغ ، فلا أعرف أين أنا ولا ما يحصل لي ؛ ويفزعني أن أريد ، عبثاً

ودون جدوى ، الاحتجاج والتمرد والدفاع عن النفس ؛ فينعكس تأشير عجزي المطلق على ناحية ما في أعماق نفسي المظلمة ، فيلفني حزن قائم ثقيل لا منجى منه .

وفي حالة جسدي المتدنية تلك ، وأنا شاعر بغموض بكل قذاراته ونتانته وضعفه ، اكتشفتُ ، لدهشتي ، أن هنالك أيضاً ، بجواري وفي مكان ما حولي وقريب مني ، حيّزاً روحياً يتألق فيه الوجد والعرفان والتطلع إلى اللانهائي . أيتوجب إذن على الإنسان ، أن يتدنى بتكوينه المادي ، كي تظهر له قوى التعالي التي تحيطه ؟ ذلك ، والحال هذه ، شقاء الخلقة البشرية المحايث .

لم يلمسني أحد من أفراد عائلتي غير حفيدي . كانوا في خشية من عدوى غير منظورة . حتى زوجتي ، لم يخطر لها أن تمسك بذراعي مرة واحدة ؛ وكانت ، في ظني ، على حق . لقد ابتعدتُ عنها خلال الشهور الأخيرة ؛ بعيداً . . بعيداً ؛ ولعلها تحملتْ بصعوبة وحشةً لا تُطاق دائماً .

كنتُ ، من جهة أخرى ، أعاود جهدي لأستكمل استرجاع تلك اللحظات الأخيرة وما بعدها ، حين قلتُ لها بأني سأبلغ السادسة والخمسين ، فاحتجتْ حائرة لا تريد أن تنزعج . كانت السيارة مندفعة بجنون ، توشك أن تطير ، وهي ، طلعتها شاحبة ، تحدق أمامها بتصميم . ولم أستطع أن أتابع حديثي لأقول لها بأن الزمن لا قيمة له ؛ وأن لدي فكرةً للاحتفال معها بهذه المناسبة ، فقد انقسمتْ دنيانا الصغيرة وانفجرتْ على حين غرة ، وبقيتْ صورتها أمامي بكل ألوانها وهي تحاول أن تستدير نحوي والروع يملكها وعيناها وفمها منفتحان بشدة . ثم ساد الظلام ولبثتُ هكذا أجهل عنها ، يا ربي ، كل شيء .

تناهت لسمعي أصوات الطبيب ومرافقيه قبل أن يفتحوا الباب ويدخلوا الغرفة بكل الضجيج الممكن ، إظهاراً لاستعلائهم على هؤلاء المرضى الضعفاء الموضوعين تحت رعايتهم . هنيهات ثم أحسستُ به يقيس نبضي .

– هذه حالة تبدو غريبة ونادرة ، ولكنها ، في الواقع ، تتكرر بين وقت وآخر . موت كلينيكي مع دفقة حياة ضعيفة تمنع تكامل الموت . حالة غامضة لا نستطيع التدخل فيها إيجابياً . لذلك فنحن ننتظر . هذا هو كل شيء .

لحظات أخرى سمعتُ فيها غمغمات المزافقين ، علا بعدها صوت الدكتور حامد :

– اسمعي بهيجة ، قولي للسيدة زوجته بأني أود مقابلتها . هل تأتي كل يوم ؟

– كلا . سأخبرها حين تأتي .

أخذوا يبتعدون ، ثم طرق أذني ، مرة أخرى ، صوت الطبيب الأجش يخاطب الممرضة :

– تفضلوا . سألحق بكم حالاً . خبريني يا بهيجة ، تلك الغرفة في الطابق الثالث ، التي توفيت فيها السيدة « أسيل » ، هل ما تزال فارغة ؟ اسألي عنها الحاج محمد مدير الإدارة وخبريني من فضلك .

ارتجّ شيء ما داخل كياني الخامد ، وشعرت بوخزة في قلبي . ماذا يعني بكلامه هذا ؟ أهي المقصودة . . فتاتي الشمس ؟ أمن المعقول أن تنطفىء هكذا وتفارقني ؟ تجرفها ، قبلي ، رياح المجهول ، وتنتهي وينتهي الحلم ؟

لم تكن مرتاحة وهي معي ؛ كانت سعيدة ومنتشية فحسب ؛ وكنتُ أحدس قلقها الذي تخفيه ، وأنتظر ، مع نفسي ، أن أجد حلاً قبل أن أصارحها . الآن ، لم يعد للحلول مكان ، فحين يتدخل العدم تُغلق الأبواب . وهم أخفوا عني كل ما يخصها وما صارت إليه . ظنوا ذلك بشكل فضيحة لا داعي لها . لم يذكروا اسمها الجميل ولا همسوا به . الأوغاد . وأصابني خمود فوق خمودي بعد سماعي كلمات الطبيب اللعين ذاك وانتابتني حالة من يوشك على البكاء ولا يقدر عليه . تتجمع العبرات والدموع في صدره وتمكث تعذبه ولا تفيض منه . وحزّ في نفسي ، رغم الموات ، ألا أستطيع بكاء حبيبتي الصغيرة . وكان عليَّ أن

أنتظر مجيء حفيدي عبد الرحمن ليمسك ذراعي بدفء أصابعه الرقيقة ويحدثني ويحدثني ويرجوني بهمس الطفولة أن أكلمه وأن أشفى وأقوم أشاركه اللعب في حديقة دارنا ، كي أدرك بعمق عظم الخسارة الحياتية التي مُنيت بها ، ثم لأشعر بسكينة غير معهودة تسربل روحي ؛ كأني اقتنعت بأن ما حدث لها ولي كان مقرراً منذ الأزل وكان جلاً أساسياً لا مفر منه رغم قسوته .

- جدو . . . حبيبي جدو ، أنت تبكي ؟ لماذا تبكي ؟

لم نختلف ؛ لم يسمح لنا قِصَرُ الزمان الذي قضيناه أن نختلف أو نتخاصم . انشغلتُ عنها ، مرة ، يومين أو ثلاثة بما لا أدري ؛ كنت ما أزال وقتذاك أعتقد بوجود أمور مهمة أخرى خارج علاقتي بها . هاتفتني وأخذت تغني دون مقدمات . « يا ناسيني وأنا عمري ما أنسى حبك » « الله . . الله . مَنْ صاحبة الصوت العذب ؟ » « يا ناسيني وأنا عمري ما أنسى حبك » « عذراً حبيبتي » « يا ناسيني وأنا عمري ما أنسى حبك » « أرفع ذراعيَّ مستسلماً » .

كانت الأصابع الناعمة تمسح بحنان تلك القطرات العجيبة السائلة من عينيَّ المغمضتين ، والهدوء اللا مألوف يحيطنا . خمنتُ أن شخصاً من العائلة جاء بعبد الرحمن إلى المستشفى ، ولعله غفل عنه فجاء هذا إليَّ بمفرده . كنتُ أفكر بما قاله الطبيب . عساني لم أسمعه جيداً أو أفهم معنى عباراته وما طلبه من تلك الممرضة . أتكون المتوفاة ، يا إلهي ، هي نفسها . . أسيلي العزيزة ؟ ولِمَ يجب ذلك ؟ ليست هي الوحيدة التي تحمل اسماً جميلاً كهذا ؛ ولعل . . ولعل . . ثم ، كيف يمكن أن نسمح بموت فراشة رائعة الألوان مثلها ؟ أي سبب يبرر هذه الحادثة البشعة التي يرفضها منطق اللطف والجمال في الكون كله ؟ إنها ، لا شك ، سيدة أخرى ؛ لابد من ذلك لكي تستقيم الحياة .

كان يهمس في أذني :

- أحميك ، جدو ، ترجع معي للبيت . قالوا لي إني الأول على الصف ، والله جدو . . أنا الأول . متى تعود جدو ؟ قل لي متى ؟

وهو ما يزال ، بحركة رتيبة ، يمسح صدغي وما حول عينيَّ . تمازجت نقرات الحذاء الحادة مع صوت زوجتي :

– أنت هنا ، عبد الرحمن ، ونحن نبحث عنك في كل مكان ؟ تعال . تعال معي .

لم أكرهها ؛ لم يسمح لي استسلامها المطلق بأية كراهية . كنتُ ، بعد تلك الفتاة ، لا أريدها في حياتي . كانت بي حاجة للابتعاد عن جو البيت الذي ألفته وكرهته ؛ وكانت هي تفزع من أية فضيحة قد تهبط علينا . شبح الفضيحة كان يخيفها ، ولذلك فضلتْ الاستسلام الصامت لعل الأمور تنتهي بصمت أيضاً .

– ماذا تعمل يا عبد الرحمن ؟ قلتُ لك تعال ، ألا تترك جدك يرتاح قليلاً ؟

– نعم ، بيبي . أنا أمسح دموعه فقط . رأيته يبكي . والله .

– بماذا تهرف ؟ تعال هنا ، تعال . ماذا قلتَ ؟

هل بكيتُ حقاً ؟ هل استطعت أن أبكي تلك التي انحدرت إلى الهوة السحيقة قبلي ؟ كان لديها ما تقوله لي ذلك الصباح ، رأيتها منشغلة النفس ، قلقة النظرات . انتهزتْ فرصة ونحن في سيارتها ، فأمسكتْ بكتفيَّ وصارت تحدق في وجهي . تراءت في عينيها الزرقاوين المتحركتين بقلق ، خيالات سوداء . ثم احتضنتني وقبلتني في جهة من رقبتي . لم تفه بكلمة ، وكانت أنفاسها دافئة ، وعطر شعرها على وجهي خفيفاً سحريا . ثم انطلقتْ بسيارتها في قفزات وارتدادات غير متوقعة .

– أسرع عبد الرحمن . نادِ لنا الممرضة . هيا . أنت تعرف غرفتها .

– نعم ، بيبي .

تحدث في الجسد المصاب أحياناً ، معجزات صغيرة لا تبدو ذات أهمية ؛ ففي هذه الخريطة المذهلة من المواد اللحمية والعظمية والعصبية وما فوقها ، وما يحيط بها من هالة لا تُسمى ، يصبح من التفاهة بمكان

أن نتحدث عن غليان في العواطف أو اشتداد في التوتر أو تسارع في سريان الدم في العروق ؛ إذ أن أغلب هذه المسميات لا تتجاوز أفعالاً وتحركات أميبية هي غاية في الصغر والتواضع ، لكنها موجودة . هنالك أمرٌ وُجد ، حركة حدثت ، شيء ما تحرك . إذ حتى في صحراء كبرى ، حين يترك جرذ صغير جحره إلى مكان آخر ، يحصل أمر ، لا يهم مقدار تفاهته وإنما المهم أن يحدث وأن بعض المواضع تتغير بالضرورة .

وهكذا ، راقداً منذ أكثر من شهرين دون حراك ، على هذا السرير نفسه وفي الغرفة نفسها في إحدى المستشفيات ، حدث أن توتر جو جسدي ، بعد أن أنصتُ مرغماً إلى ذلك الحديث ذي الأغوار الغامضة الذي تبادلته زوجتي مع الطبيب قبل يومين . لم يتكلما هكذا من قبل ؛ ولو لم يكونا منفردين ما تجرأا على الكلام . تلك ناحية ذات أهمية ؛ فما انكشف من حديثهما يشير إلى دلالات خطيرة . قال بصوت أقرب إلى الهمس :

– هذه حكاية معقدة يا سيدتي ، وكل مسؤوليتها تقع على عاتقي ، فأنا الطبيب المعالج كما تعلمين .

– دكتور حامد ، اعمل واجبك كما تراه ، وفكر بالأمور الأخرى .

– كيف تضمنينها لي ؟ مع احترامي .. كما تعلمين ..

– أنت لستَ طبيباً حسب ، بل حكيماً أيضاً ، وأنا واثقة أن بإمكانك أن تنفذ إلى أعماق البشر بسهولة . وأنا .. هل يمكن أن أخدعك .. بعد كل ما حدث ؟

– مدام شريفة ، أرجوك ، كانت ساعة ضعف .

– صحيح ؟!

وكنتُ ، في سكون الغرفة ، أتداول وأحلل الأفكار في ذهني ، كأني قائد يخطط لتحريك قطاعاته العسكرية وأنا أضعف من ذبابة صغيرة ، ضعيف ووحيد . ربما هي ، هي وحدها التي يمكنها ، كان يمكنها ، أن تقف إلى جانبي حتى نهاية المطاف . شعرت بعمق وعلى الدوام انها ملتحمة بي تماماً . وعلى عكس المعتاد ، كنتُ ، بعد انتهاء

اللذاذات الجسدية ، أنجذب إليها ؛ إلى الكل الذي تمثله . . . ضعفها وحبها واستكانتها وصمتها ونظراتها المتلاينة ورائحتها وملامحها الوضاءة المتعرقة ؛ فأحتضنها بشوق وأعصرها إلى جسمي كأنها الحياة التي توشك أن تنفلت مني . وبإبهام شديد وبصورة ملغزة . . . غاية في غموض لغزها ، كنت أحس بها تحميني أنا القوي . ولعل هذا هو سبب قدرتي على ذرف الدموع ، إذ يتبادر لي أنها قد تكون فارقتني إلى الأبد وماتت قبلي ؛ فهذا هو الأمر الوحيد في العالم كله الذي يمكنه أن يبكيني . وهم لا يتطرقون إلى ذكرها ؛ ولعلهم يظنون أن هذا التصرف يحكم عليها بالفناء . ألاّ يذكرونها ، يعني أنها لا توجد . . لم توجد على الاطلاق . هم ينسون أن ما تأسس بين الجسدين تناوشته الأرواح أيضاً ، أو قل اللامادة من التكوين البشري ، فامتصته وتشبعت به ، فانقلبت تعيش على مستوى آخر ذي اشتباك قوي بما خلقته حرارة الأجساد ؛ فلا ينفع الغياب ، والحال هكذا ، في تسريع النسيان أو في قدومه أصلاً . ومع تلك الانفعالات أو الارتدادات الخافتة التي أحسست بها ، ساورني أمل بأني قد أجد ، صدفةً وفي آخر المطاف ، طريقاً ضيقاً ، ضيقاً للنجاة .

وازداد هذا الأمل قوة في اليوم التالي . كان الصغير عبد الرحمن أول من جاء إليَّ . تأخروا ، ربما ، لحضور أحد اجتماعاتهم في غرفة الطبيب . صاروا يحبون المناقشات والثرثرة وإبداء الآراء ووجهات النظر ؛ ولعلهم أدركوا بالسليقة أنهم يملكون حرية أكثر في الكلام دون وجودي المشؤوم قريباً منهم . كان المخلوق العزيز متدفقاً بحديث الطفولة ذلك الصباح ؛ يلثغ ويتقافز في خطابه من موضوع لموضوع وهو ، كعادته ، يمسّد ذراعي وصدغي ووجنتيَّ وما تحت عينيَّ بأنامله الناعمة ، عندما شعرت أو حين مرّتْ في ذهني رغبة ملحة في أن أفتح عينيَّ أولاً ثم أن أحرّك كفي لأمسك بأصابعه الصغيرة . لم يكن شعوراً كاملاً ، بل كان رغبة في شعور ، إن أمكن القول . خيال شعور ؛ شبح شعور . لكن أنفاسي ، رغم ذلك ، تسارعت ، وخيل إليَّ ، خلال خضم

الأنفاس وما يشبه الشعور والرغبة ، أن خفقة ، لا تُرى بالعين المجردة ، قد انتابت أصبعي الخنصر . لم يرها حفيدي بالتأكيد لأنها ، ربما ، لم تحدث وبقيتْ رغبة أو شعوراً برغبة ؛ لذلك لبث يحاورني ويسند برفق ذراعي وينقل لي دفء طفولته ومحبته ودعوته للحياة . وحين تعالى وقع أقدامهم وضجتهم وأحاديثهم ، لم يقطع الصغير حوار يديه الصامت مع جسدي . كان الطبيب معهم وكانوا يتكلمون بأصوات خافتة نسبياً حدستُ فيها شروراً قادمة .

- ابتعد يا صديقي الصغير .

- قم عبد الرحمن . قم من هنا .

- هل كنت تكلم جدك يا صديقي الصغير ؟ أتظنه يسمعك ؟ ولكن . . ماذا يجري هنا يا ممرضة بهيجة . . وما هذه الرائحة ؟ ألم تنظفوه صباحاً ؟

وبدا كأن فضيحة انفجرت في الغرفة على حين غرة . أخرجوا الجميع بضجيج مفتعل ونُودي على من نودي من الخدم ، ودخلت جماعات مسرعة ثم خرجت وبدأت عملية تنظيف الجسد في التو . ولم تتغير الحال عندي ، لا قبلاً ولا بعدئذٍ ، وكان سلوك الجميع آلياً رخيصاً ، لا يعدو أن يكون مجرد شكليات عبثية مقبوضة الثمن .

ما كان يشدني إليها . . إلى تلك البنية العذبة الجميلة المخلصة . . لم يكن وحده الجنس ولا حرارة شبابها أو حتى حبها المتألق ، بل كان عمق الارتياح الذي يسربلني وأنا بجوارها . تغيب عني المشاكل والهموم والمسؤوليات الثقيلة ، وأغتسل حالما نلتقي بما يشبه ماء الينابيع الرقراق ، فتغمرني تلك الأحاسيس الاستثنائية الرائعة من غبطة هادئة واسترخاء جسدي ونفسي وعقلي . وأنسى . . أنسى كل شيء ولا أريد أن أتذكر ؛ فقد كنت على علم بألا فائدة من العمل على نبش دواعي الشقاء . . . . مرة ، في خلوة قصيرة ، كنا في أعماق دفينة من الطمأنينة والالتحام ، نضطجع بسكون ؛ رأسها على صدري وأنا أتلمس عظمة كتفها الناعمة . فما أشعر ، من وطء الارتياح والتناغم ، إلا

ودموع عجيبة تنبجس من عينيَّ بغاية الرقة وتتسايل قطرة قطرة على خديَّ ثم تنتشر على صدغها . لم تتحرك . هنيهات ، ثم رفعت ذراعها ومرّرتْ برفق كفها على عينيَّ هامسة : «أعرف هذا البكاء . إنه صدى لروح تشقيها سعادة الجسد العابرة» .

ذلك المساء ، كانوا يتعجلون الأمور . اجتمعوا مع الطبيب الذي كان يمنحهم غطاء الشرعية بالبقاء في المستشفى بعد الوقت المسموح به . سمعتُ نتفاً من كلامهم . بدت لي ذات معانٍ خطيرة .

– نعم ، بصورة طبيعية . ذلك ما أقوله . . طبيعية .

يجب أن يحدث ذلك الأمر ، ولكن بشكل طبيعي .

– لا نريد فضيحة أو تحقيقاً .

– طبعاً . سمعتي وسمعة المستشفى .

وبسبب تلك الصور الجميلة التي مرَّتْ في ذهني وأسعدتني . . عيناها وشفتاها وعظمة كتفها . . بدأ الخوف يداخلني من الموت . أية لقمة سائغة سأكون لهم! وتمنيت أن يكون بوسعي أن أقف ضدهم وأن أرفض وأقاوم ؛ فأخذتُ أتدبر شحن دمي برغبات العيش والحب وخير البشرية ؛ وخيل إليَّ ، بعد انصرافهم وفي هدأةِ الليل ، كأني استطيع أن أرفع جفنيَّ وأن أفتح نافذة على العالم . تلك كانت ظنوناً وأوهاماً ، جاء الانتكاس بعدها والخمود .

بقيتُ ، تلك الليلة ، أرهف السمع للأصوات في المستشفى حولي ، مترقباً أمراً سيناً يهبط عليَّ فجأة . لم تكن الأمور الطبيعية المفجعة ، نادرة الحدوث في هذا المبنى . إلا أن اليقظة في حالي هذه ، لم تكن ذات جدوى . سيكون بوسعي فقط أن أعلم وأوقن بأن شخصاً مجهولاً يدفعني بتصميم نحو الهوة السوداء ، وبأني سأرتمي فيها دون مقاومة أو اعتراض . ذلك ما كان بوسعي أن أشهده بالتأكيد ، وهو ، للأسف ، ليس بالشيء الكثير .

أيقظوني بغلاظة فيما خمنتُ أنها ساعات الصباح الأولى . قلبِ أحدهم جسدي على الجهة اليمنى ثم شعرت ببرودة الماء الذي سُكِب

عليَّ لتنظيفي من مخلفات الليل الطبيعية . كانت برودة حادة لاذعة لم أجربها منذ بعض الوقت وأحسستُ كأني أرتجف بسببها . تلك استجابة غير معتادة من الجسد المخرب . خفق ، بصمت ، قلبي المجنون .

أيمكن أن يحصل ذلك ؟ كنت أختض مع المياه المتسكبة على وسطي وفخذيَّ ، وكنتُ أتألم من قبضة يدٍ تعامل أعضائي بخشونة . وإذ تركوني بعد حين ، تلبستني حال من الرضا والارتياح . كنتُ أتمتع بالنظافة التي أعيشها ، وكان ذلك شيئاً جديداً . ولم يمضِ إلا وقت وجيز حتى ترددت على مسمعي زغردات الحبيب الصغير :

– جدو . . حبيبي جدو ، صباح الخير

وتسلقتْ الأنامل الدافئة الشفيقة وجنتيَّ وصدغي وخديَّ وعينيَّ ، وتلمَّستْ ذراعي ثم اشتبكت أخيراً بكفي . بدا لي كأن الشمس تضم أصابعي بين جوانحها ، فداخلتني حرارة سرت من وسطي حتى أطراف ساقيَّ ثم عادت تنبعث بقوة متراجعة إلى صدري ورأسي . كانت عملية انبعاث وإعادة خلق لا سابق لها وكان دمي في جريانه كأنه يفور . . يفور . . وهزني الزخم الذي توقد فيَّ ، وتملكني شعور بأني ، في هذه اللحظات ، مقتدر وأملك أن أفعل . بذلتُ جهدي لأركز فكري وإرادتي في يدي اليمنى . تحركت أصابعي ببطء وقبضتْ على الأصابع الغضة الحارة المتداخلة في كفي .

صرخ الصغير العزيز مندهشاً ، ثم تعالى هتافه ينادي الجميع . التمّوا عليَّ يشاهدون ، بعجب وصخب ، تماسك كفي بكف حفيدي . كانت تلك صورة ، لا ريب فيها ، عن تمسكي بالحياة . ولذلك وبسبب شكهم في أن نفحة الحيوية المفاجئة هذه ، قد تعني تفتحاً على الأصوات ، فقد التزموا ، بعدها ، جانب الحذر والصمت وهم حولي ؛ فإذا تحدثوا فيما بينهم ، تحدثوا عن معجزة العودة واسترجاع الوعي والأحاسيس بفضل القدرة الإلهية العظيمة . كانت فرحة ولديَّ عبد القادر وشذى أصيلة لا شائبة فيها ؛ وكذا بدت لي عاطفة رواء أم عبد

الرحمن ، أما شريفة والصهر المنافق فقد كانت مشاعرهما بادية الزيف . خمنتُ كل ذلك من نبرات الأصوات وأمواجها المتبدلة من التعليقات وبعض الهتافات اللا إرادية ، ولم أكن متأكداً من شيء .

كنتُ آمل فقط أن يزداد تحسن صحتي وأن أستطيع ، بوسيلة ما ، السؤال عن مصيرها . كانت صورتها تملأ كياني كله ، وكنتُ قلقاً تساورني الشكوك عنها ويملكني خوف من نوع خاص ، خوف من انتهاء كل شيء جميل ، من انطفاء الأضواء في حياتي . في اليوم التالي ، عصراً كما خمنت ، كان عبد الرحمن معي ؛ جالساً إلى جانبي يتشبث بيدي وأتشبث بيده حين تراجفت أجفاني لحظة ثم أخرى وتحركت ببطء ثم ارتفعت رويداً رويداً بغاية التلقائية ، كأنها لم تنغلق منذ أكثر من شهرين . واجهتني أشعة الشمس الحمراء مرتمية بتكاسل على الجدار الأبيض ، تترقرق وتتلامع وتكاد ترقص . كانت حمرتها الوردية بمثل لون وجنتي تلك المخلوقة التي أفتقدها . رأى حفيدي معجزة الحياة الثانية هذه ، فتعالى صراخه مرة أخرى ، ومرة أخرى تجمعوا حولي يتطلعون باستغراب إلى هذه الحوادث الاستثنائية التي أخذت تتكاثر على غير انتظار .

ورأيتهم ، رأيتهم جميعاً بعينيَّ المبهورتين بالنور . كانوا شاحبي الوجوه ، واجمين . . زوجتي شريفة وابني عبد القادر وزوجته رواء ؛ إلا تلك الطلعة المشرقة لحفيدي عبد الرحمن . كم بدت لي الشمس تنير عالم الغرفة الكئيب! وكان في ضحكاته المتعاقبة العالية ، يزيد من شدّ كفي وعيناه تشعان بهجة وسروراً لا نهائيين .

تجمعوا حول سريري ؛ وبمعونة الممرضة والطبيب ، أجلسوني مستنداً بظهري إلى مخدة كبيرة وضعوها خلفي . كنت في غاية الضعف ، يرتجف قلبي في خفقاته وتترامى أطرافي إلى كل جهة . لم أستطع إبقاء رأسي مرفوعاً وثابتاً ، فأعادوا إضجاعي وأسندوه بمخدة صغيرة لأتمكن من الرؤية . وكأنما تعبت عيناي من متابعة النظر ، فانغلق الجفنان آلياً بهدوء .

وكنت ، مع ذلك وطوال الوقت ، أفكر فيها وفي كيفية السؤال عنها والاستيضاح عن مصيرها ، ولمن أوجه السؤال وبأية طريقة يا إلهي!

عدتُ ، بعد حوالي الساعة ، أفتح جفنيّ وأتطلع إلى الوجوه المحيطة بي . تراخت ملامحهم قليلاً بعد أن تألقوا مع ما يجري ، وبدا لي كأنهم استسلموا لما ينتظرهم . وبسبب ما كان يعتمل في داخلي من وحشة وقلق ، عنَّ لي أن أحاول الكلام .

جمعتُ كل ما لديَّ من حماس ومن بقايا القوة الجسدية والنفسية فناديت حفيدي . صدر عني صوت مجروح ، مخذول ، لا علاقة له بأصوات البشر ؛ مثل خدش على اسطوانة تتوقف عن الدوران فتتلاشى الألفاظ تدريجياً . غرغرة محزنة ، أين منها ذلك الهمس العذب بكلمات الغزل ، في أذنها المغطاة بخصلات الشعر! وأسدلتُ أجفاني بأسى وغمرتُ نفسي بصمتي . بعد أيام صرت أقعد في سريري منذ الصباح الباكر . كانوا يساعدونني بحذر على إتمام تنظيف جسمي ، تلك العملية الشاقة عليَّ وعليهم ، إلا أني كنت أتحملها بصبر المدرك بما هو فيه . وإذ يرتبون جلوسي بعد ذلك على جهة من الفراش ، متكئاً ومستوداً بالمخدات وغيرها ، يتظاهر لي كأني عدت إلى حياتي المعتادة التي ألفتها قبل الحادث . كانوا يأتون لزيارتي حسب استطاعتهم يومياً ولكن بأوقات مختلفة . أول من يحضر من العائلة زوجتي شريفة تتبعها ابنتي شذى ؛ وكنتُ أبدو ، في قعدتي معتدلاً على الفراش ، كمن يملك قواه بالكامل ، وكان ذلك تزويراً مني ، إلا أني لم أستطع إلا التظاهر به . كنت شبه مزهو بأني قدرت على العودة إلى الحياة ، وكنت شبه واثق بأني سأتقدم صحياً بانتظام أكيد . غير أن تلك الأمور لم تكن هي الأهم في نظري . ما كان يهمني حقاً وبشكل تام ، هو أن أنقل لزوجتي ما كنت أفكر فيه ، ما كان يضطرب في رأسي من أفكار وأسئلة . كنتُ أنظر إليها وهي تجلس بهدوء شبيه بالخنوع ، قبالتي على الطرف الآخر من السرير ، تبادلني النظر آلياً ، تبقى تتبادل النظر بسكون وبثبات . كنت أنقل إليها عبر

نظراتي أموراً كثيرة . أحدق فيها ، حاصراً ذهني في ذلك التساؤل المعذب . . . ماذا جرى لأسيل ؟ أين هي الآن ؟ أين هي الآن ؟ أين هي الآن ؟ قولي . قولي لي أين هي الآن ؟ كلميني . كلميني أرجوك .

ولم تكن تريد أن تجيب . كانت تفهم ما أقوله لها بنظراتي ، لكنها بقسوة باردة ، لم تكن تجيب ؛ لم ترد أن تجيبني . ابنتي شذى وهي واقفة على جهة تتابع نظراتي ، أرادت أن تجيب رغم أنها لم تفهم ، فتساءلت :

- ماذا تريد يا أبي ؟ ماذا يريد أبي ، يا أمي ؟

فالتفتت إليها زوجتي :

- كيف لي أن أعلم .

ثم قامت بحركة حادة من أمام نظراتي وأسرعت بخارجة من الغرفة .

بُعيد الظهر يقبل عليَّ الربيع بصورة عبد الرحمن ووالديه . . عبد القادر ورواء . وعلى العكس من ابني الذي لا يطيق الاستقرار في مكانه ويتحاشى أن تتلاقى نظراتنا ، تسحب زوجته كرسياً وتجلس بسكينة ودون صوت ، على اليسار قريباً مني ، بينما يقفز حفيدي بمرح ويستقر بجواري ممسكاً بذراعي .

كانت رواء هذه تملك وابنها عبد الرحمن ، فيضاً زائداً من أحاسيس المحبة وكرم الود للآخرين ؛ ومع أنها لم تكن تلقي عليَّ إلا نظرات عابرة وسريعة ، إلا انها ، بين لغط الصغير وحديثه المستمر ، كانت تلاقي نظراتي إليها بنظرات فهم ، كأنها كانت تهم بأن تبوح لي بأمر معين . كان فيها شبهٌ بمخلوقتي الضائعة ، شبه ملغز لا علاقة له بالشكل ، بل ينبع من تكوينات روحية تحيط بالاثنين ؛ ولذلك صرتُ أحدثها بنظراتي أملاً أن أسمع منها جواباً . ثم تذكرت أن قرابة بعيدة تربطها بأسيل ، وأنهما كانتا صديقتين منذ الصغر . بعد ذلك فإنَّ لرواء هذه امتيازاً كبيراً عندي ، فهي أم حفيدي عبد الرحمن وهي المخلوقة

التي تكوّن في أحشائها وانبعثت فيه الحياة مضمخاً بدمائها ؛ وغالباً ما يُطلب من ذوي الامتياز مثلها أن يقدموا أشياء ذات امتياز أيضاً ؛ ولذلك استغثتُ بها وأردت منها أن تدركني وتمدَّ لي يدها في محنتي الغريبة هذه . ولم تستطع ، بعد أيام ستة ، أن تقدم لي شيئاً . كانت تواصل المجيء والجلوس قبالتي أو على جهة متطرفة ، وكانت تكلمني أحياناً بعبارات مبتورة بدت لي ، بعد دوام تكرارها ، كأنها شفرات تومئ إلى معانٍ خفية . كانت تحدثني ، خصوصاً حين نكون منفردين أو بوجود عبد الرحمن معنا :

– الحمد لله على سلامتك يا عمي ؛ ماذا نبتغي من الله سبحانه وتعالى غير النجاة ؟ ولقد حصلت ولله الحمد .

وكنت أريد أن أتغاضى عن هذه العبارات التقليدية ، لعلي أصل إلى فهم ما تود أن تنقله إليَّ جواباً على تساؤل نظراتي ؛ لكنها كانت تستمر في الانفلات والهروب . . . مرةً ، انتابتني وهي تتكلم برتابة خانقة ، حال من الاكتئاب والأسى تبدت ، كما حسبت ، في نظراتي وفي تقاطيع وجهي فتوقفت بغتة ولبثت تتطلع إليَّ بذعر ، بعض الوقت ، ثم همست :

– لم يتبق الشيء الكثير يا عمي . الحمد لله على ما تبقى ، وأنت تعرف ذلك . لِمَ الحزن إذن ونبش الماضي ونشدان ما ضاع ؟

لم يزدد اكتئابي لكلماتها المؤسية تلك ، واستطعتُ أن أحبس دموعاً تجمعت في قلبي وكادت أن تنبثق من عينيَّ . أهي حقاً بهذه الدرجة من الحكمة ؟ وهل تنعى لي رفيقتي الجميلة بكلماتها المغلفة ، أم أنها تنصحني بأن أتجاهل وأن أحيا مكتفياً بذاتي وبالقليل القليل الذي استرجعته من حياتي ؟

أغمضت عينيَّ ، متعباً ، غير قادر على الاستمرار . لعلها على حق ، لعلها على حق ؛ وماذا بإمكاني أن أعمل أمام طريق الحياة ذي المسلك الواحد ؟ ومع الحزن واليأس والاستسلام ، بدا لي كأني تهاويت

درجات في سلم استرداد صحتي ؛ فأخذت أشعر ، بمرور الوقت ، بأن قواي تضمحل تدريجياً وأن صحوتي الجسدية لا تتابع تقدمها .

ولأن رواء تراجعت عن زياراتها بشكل واضح ، وراحت ترسل لي حفيدي عبد الرحمن مع والده أو مع جدته زوجتي ، فقد أدركت أنها قالت لي كل ما كانت تريد أن تقوله وأنها حدست ، ربما ، بأني قد فهمت . كان ذلك افتراضاً لا يسنده أي برهان ، لكنه زاد من ضعفي وصار الطبيب يتحدث مع العائلة عن انتكاسة صحية متوقعة . كنت أغفو وهم يحيطون بي وأغرق في نوم عميق مريح أغلب الأحيان . جاءتني أسيل مرةً أو مرتين في الأحلام وهي على أبهى صورة رأيتها فيها . . ملونة ، مشحونة بالحب والأشواق والتساؤل . لم أحزن ولم أكتئب وأنا أفتح عينيَّ في ظلام الغرفة . كانت رؤيا عذبة تهزّ القلب والروح ؛ وماذا يهم ، في الحقيقة ، أن تكون مجرد رؤيا ، مادامتْ تنير الظلام الدامس من حولي ؟

وإذ رحتُ أبحث عن الفرق بين الأحلام والرؤى وبين أوقات السعادة المعيشة وما ترسب منها ، لم أعثر على فروق جوهرية مقنعة ؛ ففي الحالين ، تتبقى العواطف والألوان والموسيقى واللذاذات غيرَ مختلفة تماماً ولا متمايزة . عن أية حماقات ذهنية نبحث إذن ، لنجعل من الحياة أمراً واقعاً ، كما يقولون ، وثابتاً وراسخاً ، وهي ، آخر الأمر ، رؤىً مثل بقية الرؤى وحلمٌ لا يهم أن نراه نائمين أو مستيقظين ؟

لم أعد ، بعد ذلك ، أخاطب أحداً بنظراتي ، إذ لم تعد لديَّ أسئلة أحب أن أجد لها أجوبة ، وسعيتُ جاهداً كي أتقدم صحياً إن قدرت . أجروا عليَّ فحوصات عديدة بالأشعة وبغيرها ، فتبين لهم ، كما أخبروني ، أن الأضرار التي أصابت جسدي قابلة للعلاج وقد بدأت تتلاشى ببطء . لم أنس « أسيل » ، فتلك فكرة غبية لا تلائم حالي . لقد قضيتُ معها زمناً في قمة من السعادة لا يصلها إلا القليلون ؛ والأمر الجديد معي هو أني عدتُ نفسياً كما بدأت ، لكنني صرتُ أغنى ذاتاً

بسبب الرؤى الرائعة التي تملأ أعماقي . لم أرد أن ينتهي أي شيء . . لا موسيقى صوتها ولا بريق عينيها ولا شذى رائحتها أو لمسات جسدها الدافئ الرقيق أو ذلك السحر في الانغمار فيها ؛ لم أرد لها أن تتلاشى ؛ لا هي ولا وجودها الأثيري المتعالي ، ولا صفحة الحياة المشرقة معها . تلك مسميات وضرورات لا ينالها الزمن .

وهكذا ، أكتب بتعثر بسيط على الآلة الطابعة ، أكتب لأني أردتُ أن أستطيع الكتابة عن كل هذا الذي مضى .

تونس – تموز (جويلية) ٢٠٠٢

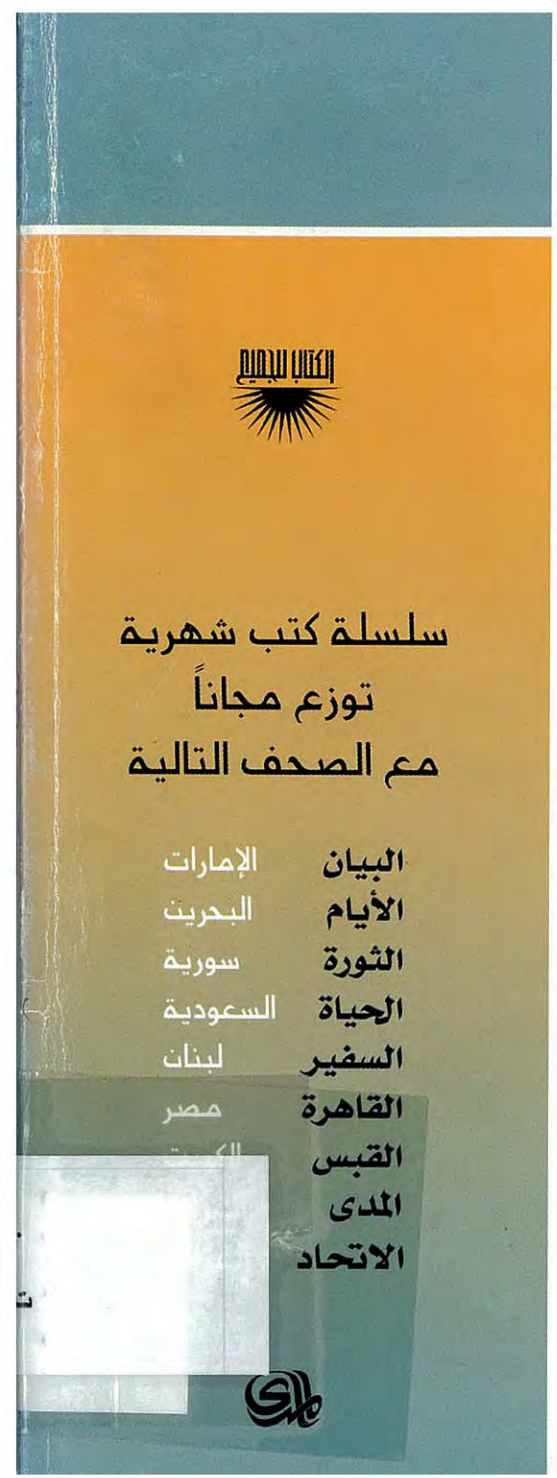

الكتاب للجميع

هكذا نريده؛ إيماناً بكونه قيمة
حتفظ بحجمها وفاعليتها مدى
عصور.

وإذ شرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة
ن الكتب القيمة التي نشرت خلال
عقود الماضية وتعذر وصولها إلى قارئ
يوم، فإنما نهدف إلى إشاعة المعرفة
تيسير وسائلها وتمكين القارئ من
وصول إلى الينابيع الفكرية ذات التأثير
ي حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر
سبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب
لجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة
تيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة
منفتحة على مختلف فروع المعرفة
كلفة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في
هذا المشروع العربي متنازلة
عن حقوقها لصالح القارئ

الكتاب للجميع

سلسلة كتب شهرية
توزع مجاناً
مع الصحف التالية

البيان الإمارات
الأيام البحرين
الثورة سورية
الحياة السعودية
السفير لبنان
القاهرة مصر
القبس
المدى
الاتحاد

ISBN:2-84305-801-X

9 782843 058011